

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

تاريخ وفنون الشاوية

الملتقى الثاني لفنون الشاوية

سطات - 1990

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

تاريخ وفنون الشاوية

تقديم :
محمد بن عيسى
وزير الثقافة

تقديم

حينما قررت وزارة الثقافة وفق التوجيهات السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله تنظيم الملتقى السنوي لفنون الشاوية بإقليم سطات، كان الهدف هو جعل هذا الملتقى تقليدا سنويا يزكي ذخائر هذا الاقليم ومميزاته التاريخية والاجتماعية، ويزكي خصوصية ألوانه الفنية والتراثية، وكان الهدف ثانيا هو اعتماد مبدأ اللامركزية منجها في التخطيط للعمل الثقافي ببلادنا. فالمتتبع لفعالية الحركة الثقافية في المغرب سيسجل أن وزارة الثقافة قامت بتنظيم عدة تظاهرات ثقافية جهوية، الغاية منها ربط الثقافة بالتنمية من جهة، والسعي من جهة ثانية إلى البحث عن العطاءات المتميزة التي تزخر بها مناطق المملكة، والتي تصب بخصوصيتها في الوحدة الثقافية الشاملة التي تطبع المغرب، وتبرز تألقه.

إن العمل الثقافي يمثل جانبا أساسيا لا غنى عنه في كل ممارسة تهدف إلى التنمية والتطور، إذ هو أداة أساسية لبناء القيم، وترشيد السلوك، وبلورة العطاءات، وتعميق الشعور بالانتماء إلى وطن عريق لذلك ينبغي إدراك أهمية الدور الذي تمارسه مثل هذه الملتقيات في النهضة التنموية، وفي إبراز- معطيائنا الثقافية من أجل أن تبقى ثقافتنا المغربية محددة لهويتنا الحضارية، كاشفة عن العمق التاريخي لبلادنا، ومؤطرة لمستقبل مشرق.

لقد حاولنا من خلال الملتقيين الأول والثاني أن نستجلي قدرات منطقة الشاوية وإمكاناتها الوافرة عن طريق تنظيم ندوات متعلقة بتاريخ هذه المنطقة وفنونها، وعن طريق إقامة معارض للفنانين الموجودين بها، وغير ذلك من المواد التي تمثل بغناها وتعددتها الوجه المضيء لمعطياتنا الفكرية والحضارية. وإذا كان الملتقيان يحكمهما الطابع الخاص ويهتمان بلون ثقافي معين فإن المعاني التي تستخرج من ذلك تفوق حدود الخاص لترتفع إلى ما هو عام وشامل، فضلا عن الرغبة في تحقيق الغايات المرسومة له هناك الرغبة في توظيف الخصوصيات توظيفا يعود بالنفع العام على الثقافة المغربية الشاملة لملتقى فنون الشاوية نكهة خاصة، وسمة متميزة فهو يتيح التواصل بين فنون الشاوية، ويتيح للمشاركين فرص اللقاء والتحاور، وتبادل الخبرات والمعارف، وسيتجلى تاريخ المنطقة وفنونها بما يعطي للممارسة الثقافية نفسا جديدا، وينعكس إيجابا على مستقبلها.

وفي هذا الإطار يسعد وزارة الثقافة إصدار مداخلات المشاركين في الملتقى الثاني لفنون الشاوية في هذا الكتاب سعيا في تعميم الفائدة وإثراء البحث المرتبط بهذه المنطقة.

فتحية تقدير لكل الباحثين والمساهمين في هذا العمل.

محمد بن عيسى
وزير الثقافة

الندوة الأولى : تاريخ الشاوية

- محمد المنوني : عرض وجيز لمخطوط عن تاريخ الشاوية
محمد مفتاح : التعريف ببعض رجالات الشاوية.
علال الخديمي : مؤلف «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية»
للقاضي العربي الغزوي.

عرض وجيز لمخطوط عن تاريخ الشاوية محمد المنوني

بسم الله الرحمن الرحيم

يهتم هذا التدخل بتقديم عرض سريع لرسالة «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير» تأليف العربي بن قاسم الشاوي البرزقي المزمري، العزوزي منشئا، السطاتي استيطاناً.

كان يشتغل بتأليفه إلى أوائل 1367/«1947». ثم كانت وفاته بعد ذلك.

وقصد به إلى عرض مختصر لتاريخ الشاوية، موزعا موضوعاته بين ثلاثة

أبواب :

- الأول : في التعريف بالشاوية، مساحة وسكانا ومآثر.

- الثاني : في ذكر عوائدها.

- الثالث : في حوادثها.

تشتمل مصورته بخط المؤلف على 59 لوحة.

ويعتبر الباب الأول أهم ما في هذه الرسالة وأوسع مباحثها : لوحة 1 - 51. وهذا مسرد وجيز لمحتوياته، فيحدد المؤلف اقليم الشاوية امتداد من قبائل زعير وما إليها شرقاً، ومن الجنوب نهر أم الربيع مع قبيلة بني مسكين، وغرباً المحيط، وشمالاً نهر أبي رقراق الفاصل بين عدوتي سلا والرباط.

بعد هذا يأخذ المؤلف في تعداد قبائل الشاوية على هذا الترتيب :

- قبيلة أولاد سعيد : لوحة 4 - 9. ومدينتها قسبة أولاد سعيد.

- قبيلة لمزامزة : لوحة 9 - 33، وفيها مدينة سطات : 25 - 33.

- قبيلة أولاد بوزيري : 34 - 36.

- قبيلة أولاد السيد بن داود : 37.

- قبيلة كذانه : 38.

وهذه القبائل الخمسة موقعها عند قسم أبي رزك.

- ثم قبيلة أمزاب : 38 - 44، وقاعدتها قسبة ابن أحمد

- قبيلة أولاد حريز : 45 - 46، ومدينتها هي برشيد، وهذه وسابقتها مع المذاكرة : ثلاثتها قبائل قسم أولاد بوعطية.

- ومن المناطق الأخرى : قبيلة أولاد زيان : 50 - 51.

- قبيلة زناتة : 52، وبها مدينة المحمدية.

- قبيلة الزيائدة : 53، وبها مدينة ابن سليمان.

- قبيلة عرب الرباط : 54 - 55

وللتعريف بهذه القبائل، يهتم المؤلف بتبريز ما بها من بيوتات وعلماء وصلحاء، فضلاً عن المدارس العلمية، والقرآنية، والزوايا وشيوخها...

وهكذا : يستوعب المؤلف أكثر من عشر مدارس عتيقة : علمية وقرآنية موزعة بين جهات الاقليم، فيتبنى القائمون عليها سكنى وتموين تلاميذها، وهؤلاء يتدرج عددهم - حيناً - الى ما يقارب المائة.

وإلى هذه المدارس، يشير المؤلف إلى عدد من الزوايا بنفس الدور على نفقتها.

وعن مدينة سطات يقدم نفس المصدر، ثمانية أسماء للعلماء الذين استوطنوها، ثم يضيف لهم القضاة من غير أهلها في ستة أسماء، والسابع : القاضي

بإحدى نواحي المدينة : محمد بن بوشعيب بوعشرين، فيقول عنه المؤلف :

«... وهو من الذين أحيوا العلم بهذه المدينة، بإلقائه الدروس العلمية في المسجد الأعظم، بين العشاءين وبعد صلاة الفجر، في التفسير والحديث والمنطق.»

ومن نوابغ هذا النشاط التعليمي، ما سجله المؤلف عند الباب الثاني وهو يذكر عوائد المنطقة.

«ثم من جملة عادات أهل الشاوية، ما كان يسمى عندهم - بالدارجة - اللامة، وهي إكرام حملة القرآن من جميع قبائل أولاد أبو رزك، يجتمع فيها أكثر من ألف طالب حافظ للقرآن، وكل قبيلة من القبائل المذكورة، تكرمهم وتحفل بهم غاية الاحتفال.»

وفيما يخص مدينة سطات، فكانت فيها العادة المعروفة بسلطان الطلبة، وهي عبارة عن الاحتفال بفقهاء المدينة وطلابها، بعد ما يعين مقدم على الفقهاء يختارونه من بينهم، ويدوم إكرامهم مدة تزيد على الشهر، الذي تكتسي فيه المدينة طابعا خاصا، لاسيما عندما يمر موكب الطلبة، والمقدم راكب على جواده، والموسيقى تعزف، والدفوف بشوارع الحي الذي يستقبلونهم أهل حيه، وتبقى هذه الحالة إلى أن ينتهي الشهر، ويختمون الطلبة ذلك بحفل بهيج فيما بينهم، ويستندعون له أعيان المدينة وفضلاتها، وبالذعاء لأمير المومنين، غير أن هذه العادة أهملت...»

وأخيرا : يختتم المؤلف الباب الثالث بالإشارة إلى مبادرات الشاوية بعد الاعتداء على الدار البيضاء : إلى أن يقول : «ثم زحفت قبائل الشاوية بخيلها ورجالها لتغزو الدار البيضاء، وخيمت كل قبيلة في جهة من جهاتها، وأحاطوا بالثغر المذكور إحاطة السوار بالمعصم، وجاسوا خلل الديار في الثغر المذكور، وتلاطمت فيه أمواج الدم من الجرحى والقتلى، من المسلمين واليهود والنصارى، ودام ذلك نحو أسبوع، ووقعت معارك دموية بين قبائل المذاكرة وبين الدولة الفرنسية»

تقديم

التعريف ببعض رجالات الشاوية

محمد مفتاح

1. تقديم :

يجد الباحث صعوبة كبيرة للحديث عن تاريخ الشاوية الثقافي لأنه لا يتوفر على وثائق صحيحة موضوعة تحت يده أو ما يوازي الوثائق. وقد لا يواجه هذه الصعوبات من أراد أن يدرس التاريخ الثقافي لسوس أو تطوان أو فاس أو مراكش أو مكناس الخ... لأن هناك باحثين أجلاء قاموا بتجميع الوثائق المتصلة بهذه النواحي أو بهذه المدن. وعلى عكس ما فعل هؤلاء العلماء والباحثون فإنه ما زال لم يقبض الله شخصا أو مجموعة أشخاص لتجميع الوثائق المتعلقة بالشاوية وتصنيفها لتسهيل مهمة الدارس الحديث، وقد احتوت الكتب المتعلقة بمدينة مراكش وفاس... بعض الشخصيات من الشاوية ونسبتها إليها.

إن عدم القيام بمثل هذا المجهود يجعل القارئ للتاريخ الثقافي المغربي قديما وحديثا ولتاريخ الشاوية، وخاصة إذا لم يكن حصييفا وغير عارف بتطورات المجتمعات، يعتقد أن الشاوية كانت خلوا من كل نشاط علمي وثقافي في صوغ بعض الأحكام التي تكون مجافية لفقهِ التاريخ وتطور المنطقة في الحاضر الذي يُبنى عن ماضٍ عريق، وثرِي وخصب.

هذا الوضع اللامكثرت بالتاريخ الثقافي للشاوية جعل بعض الباحثين من مستويات عليا لا يتساءلون عن سرّ خلوها من الشخصيات الثقافية التي كانت تسكنها، ولا يتساءلون عن وجود مراكز ثقافية بها. وهكذا فإن صاحب أطروحة «الحياة الثقافية في العصر المريني والوطاسي»⁽¹⁾ لم يذكر أية شخصية تنتمي الى هذه الجهة، في حين أن هناك بعض شهيري المؤلفين من أبناء الشاوية، كانوا يعيشون في المدة المؤرخ لها، كما سنبين فيما بعد. كما أن صاحب أطروحة «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين»⁽²⁾ خصص فصلا أولا احتوى على المراكز الحضرية الكبرى، وفصلا ثانيا اشتمل على المراكز الحضرية الصغرى. وتعرض للمراكز القروية في الشمال وفي الوسط وفي الجنوب وفي الصحراء وفي السودان. ولكن قارئ هذه الأطروحة لا يعثر على أي ذكر للشاوية ومراكزها وكأنها لم تكن مسكونة، أو كانت فقرا يئاباً؛ وما قيل حول هاتين الأطروحتين يقال على غيرهما، ونحن لا نلوم أحدا في هذا السياق وإنما نقرر واقعا ونشير الانتباه إليه ليتدارك بالعلاج وبالاهتمام، لأن الشاوية ليست إلا جزءا من المغرب قديما وحديثا تؤثر في أجزائه وتتأثر بها، وخصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أهمية موقعها وغناها.

إن أولئك الباحثين معذورون لأنهم لم يجدوا بين أيديهم كتبا جامعة لشخصيات المنطقة يتخذونها سندا لأبحاثهم كما يجدون في منطقة سوس وغيرها، وإنما يتعاملون مع ما وجد بين أيديهم غير معيرين كبير انتباه الى أن شخصيات مذكورة في تلك المجاميع تنتمي الى الشاوية، ولكنها فارقتها لدواعي التعلم أو الحج أو التجول في أصقاع الأرض.

الشاوية، إذن، عبر تاريخها، كانت لها شخصياتها العلمية والصوفية والسياسية، ولكن للتعرف عليها يجب التنقيب عنها في كتب الرجال أو بناء شخصياتها من خلال ما تناثر حولها في الوثائق المختلفة.

وسأعرف اليوم بشخصيتين : إحداهما غير معروفة، وثانيتها معروفة بما فيه الكفاية أثناء العصر السعدي ولكنها نسبت الى مراكش في حين أنها من صميم الشاوية.

2 - يحيى البرغواطي (ت 768هـ) :

أول هاتين الشخصيتين هو يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطي، وهو آخر من ترجم به ابن الخطيب في كتابه «الاحاطة في أخبار غرناطة»⁽³⁾، وجعله من بين الزهاد والعلماء، قال عنه إنه «من أهل أنفا» وكما تعلمون. فإن أنفا هي نواة

الدار البيضاء حاليا. وكل من تحدث عن أنفا من المؤرخين والرحالة أطراها غاية الاطراء. ويمكن أن يتخذ نموذجا له ما ورد في كتاب «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»: «قلْتُ أنفا. قال : جَوْنُ الحَطِّ والاقلاع ومَجْلِبُ السَّلَاج. تُهْدَى إليها السفن شارعة وتبتدرها مسارعة. تُصارف بُرْها الذهبي بالذهب الابريز وترايح بِرْها وتغاديه بالتبريز... وخارجها يُفْضَلُ كل خارج وقانصها يجمع بين طائر ودارج. وفواكهها طيبة وأمطار عصيرها صَيِّبَة. وكيلها وافر وسعرها عن وجه الرخاء سافر وميرتها لا ينقطع لها خُف ولا حافر...»(4).

ويصفها هذا النص بأنها كانت مرسى للسفن تأتي إليها محملة بالسِّلَاج وبالذهب وتذهب مليئة بالقمح الذي يشبه الذهب لأن أمطارها غزيرة. ولذلك فقد توافرت فيها أنواع المزروعات والفواكه وشاع فيها الرخاء. فارتادها الناس من داخل المغرب ومن خارجه.

هذه الحركة التجارية المزدهرة مع الخارج جعلت بعض أسر أهل أنفا يخالطون الأجانب فيعرفون لغتهم ويقومون بالترجمة. ويكونون قوة اقتصادية. وكان يحيى البرغواطي من أبناء هذه الأسر. إذ يقول عنه ابن الخطيب إنه من «بيت عمال يعرفون ببني الترجمان أولي شهرة».

وهذه الشهرة هي التي جعلت ابن الخطيب يخصص هذه الأسرة بالذكر غير ما مرة. فقد تحدث عنها في ترجمة «يحيى» وتحدث عنها في رحلته «نفاضة الجراب» لما كان قافلا من رحلته الجنوبية، وأثار انتباهه الدار العظيمة التي كانت تنسب الى والي الجباية عبو من بني الترجمان «قارون قومه وغني صنفه»(5) ويفهم من هذا ان هذه الأسرة كانت تقوم بوظائف الترجمة وباستخلاص الجبايات الناتجة عن عملية البيع والشراء. مما كون لها ثروة واسعة، وُصفت بأنها كمال قارون.

على أن يحيى تعاطى للطريقة الصوفية فحفظ كثيرا من كتبهم وروى كثيرا من أخبارهم ؛ ومن محفوظاته كتاب «منازل السائرين الى الحق» لأبي اسماعيل الهروي. وكل مهتم بالثقافة الصوفية يعلم قيمة هذا الكتاب وانتشاره بين المتصوفة والمؤلفين في التصوف في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ومن المغاربة الذين اعتمدوا عليه ابن خلدون في «المقدمة» وفي «شفاء السائل»، ومن الأندلسيين الذين اتخذوه سندا لهم لسان الدين بن الخطيب في كتابه : «روضة التعريف بالحب الشريف»(6) وخصوصا في «الطريق المؤدية الى منزلة العارف». يقول ابن الخطيب. ونأتم في تعديدها وإن خالفناه في الاختصار وتنويع العبارة بالجزء المعروف بـ «مقامات السائرين الى الحق» اذ مؤلفه هو «الامام وكتابه الزمام».

وكتاب الهروي يحتوي على عشرة أغصان، وكل غصن يحتوي على عشرة فروع، إنه موسوعة مختصرة لتعاليم الصوفية ومصطلحاتهم. كما أن يحيى كان يحفظ القصيدة الكبيرة لابن الفارض، وقد شهرت في الشرق وفي الغرب، ومما يذكر بهذا الصدد أن المقرئ الجد قد عارضها.

ولم يكتف يحيى بالحفظ وإنما ألف في طريق القوم. فقد ذكر ابن الخطيب انه قيد كثيرا من الأجزاء منها :

- نسبة الذنب الى التآكر جزء نبيل غريب المأخذ.

- ما أشكل من كتاب أبي محمد بن الشيخ.

- كتاب كبير الحجم في الاعتقاد جلب فيه كثيرا من الأقوال والحكايات.

سافر الى الأندلس «عابدا كثير العمل على حداثة سنه ونزل برباط السودان من خارج ماله واشتهر وانتال عليه الناس. لأنه كان مليح الملبس مترفعا عن الكدية عزيز النفس... حسن الحديث... على سنن من السذاجة والسلامة والرجولة». صاحب شهرة «قرعت به أبواب الملوك بالعدوتين»... كما أنه سافر الى الحج ولقي جلة من الشيوخ والعلماء. وكان ممن التقى بهم الوزير والشاعر لسان الدين بن الخطيب الأندلسي. فجرت بينهما مناقشات و منافرات سجل ابن الخطيب أصداءها أثناء ترجمته بأبي زكرياء يحيى، مما يظهر معه تحامل ابن الخطيب عليه ومحاولة اغاظته. فهو مع اعترافه بكثير من خصاله الخلقية والعلمية، نقّص من مؤلفاته لا لأنها قاصرة وإنما كان ابن الخطيب يريد أن يداعبه مثلما كان يداعب ابن خلدون.

فأبو زكرياء يحيى البرغواطي كان عالما جمّع بين العقليات والنقلات ؛ فقد حذف المنطق والثقافة الصوفية الراقية مما جعله يحتل مكانة مرموقة بين معاصريه من العلماء الكبار مثل ابن الخطيب والمقرئ الجد وابن خلدون وغيرهم، وبلا شك أن المكانة نفسها كانت له في الأندلس. وقد أهلته مكانته ذلك أن يكون واسطة خير بين الناس وملوك عصره في المغرب وفي الأندلس. ومع كل هذه الخصال لهذه الشخصية الشاوية فإنها لا ذكر لها في كتب المغاربة القدماء والمحدثين.

3 - سعيد بن مسعود الماغوسي المكنى بأبي جمعة (1016هـ/1607م)

وهناك شخصية ثانية أكثر شهرة من هذه، وهي شخصية سعيد بن مسعود الماغوسي المكنى بأبي جمعة، وقد يُعطف على هذه التسمية وصف المراكشي، فيقال سعيد بن مسعود الماغوسي ثم المراكشي⁽⁷⁾. وأما المتحدثون عنه من المشاركة فغالبا

ما يحذفون نسبة الماغوسي» ولربما كان يحذفها هو أيضا من نسبه في المشرق. لأسباب قد يكون منها ما توحى به دلالة الكلمة... وأما نسبته المراكشي فهي التي جعلت صاحب أطروحة : الحياة الفكرية على عهد السعديين» يترجم له ضمن علماء مراكش ضاربا صفحا عن النسبة السابقة على نسبة «المراكشي» وهي الماغوسي، ونسبته إلى ماغوس ليس فيها خلاف بين المتحدثين عنه من المغاربة، فما هو أقرب الناس إليه يتحدث عنه بهذه النسبة، ويعني ناسخ شرح «لامية العرب»، يقول في حقه : «مؤلف هذا الشرح أي شرح لامية العرب هو الشيخ فريد عصره السيد الحاج سعيد الماغوسي (...). ثم يقول بعد هذا : «فحينئذ رسمت اسمه ولقبه وموضع نشأته» ؛ وعلى هذا، فإنه نشأ بماغوس.

نشأ علمتنا هذا بماغوس، ولكن أين ماغوس هذه ؟ إن الباحثين وهذا من رحمن الحظ، يتوفرون على نص ثمين يتحدث عن ماغوس ورد في كتاب «نفاضة الجراب في علاقة الاغتراب».

يقول عنها «ماغوس دشار الزاوية ومركز الخطوط المتوازية ومناخ الرفق السارية وحاضرة تامسنا حيث مجلس قاضيها، وتشاجر ساخطها وراضيها وحمام متوضيها، دشار كبير يأكل من هُري ويشرب من بئر، فقد النضارة وعدم مرافق الحضارة إلا أنه على الاختزان أمين ولحفظ الحبوب ضمين ما لم تعث شمال للفساد ويمين. فاتخذ به مسجد شان النقص من مناره، لقصور درهمه وديناره».

ثم يقول أبياتا شعرية منها :

ماذا لقينا بماغوس من اللفظ ليلا ومن هرج الأحراس والشرط
ومن رداءة ماء لا يسوغ لنا شراب جرعته إلا على شطط
ومن لغات حوالينا مَبْرَبرة كأننا في بلاد الزنج والنبط...

فمن خلال وصف ابن الخطيب لماغوس تبين أنها : كانت زاوية وعقدة طرقية مهمة يجتمع فيها المسافرون، فهي حاضرة تامسنا : فيها القاضي وفيها المسجد وما يتبعه من مرافق، كما أنها كانت غنية بالحبوب وكل ما يحتاج إليه من أكل. فهي إذن كانت حاضرة بكل ما تعنيه الكلمة، وخصوصا أن هذا الوصف صدر من شخص شهر بتصيد الصفات السلبية.

أين موقع ماغوس ؟ لا نستطيع تحديده الآن بالضبط، ولكن قد يكون موقعه بين مديونة والكاره حاليا، إذ الطريق التي كانت تربط بين مراكش والرباط تمر من «مكول فماغوس». فقباتل سفيان... وقد يرجح أنها كانت في هذا الشريط الذي كانت تسكنه القبائل الصنهاجية، ولذلك نجده يوصف بـ«الصنهاجي» أحيانا.

نشأ صاحبنا، إذن في ماغوس حاضرة تامسنا وتلقى تعليمه الأول بها، تحدثنا المصادر التي تحدثت عنه أنه ولد بعد 950هـ وأنه رحل الى الشرق عام أربعة وسبعين وتسعمائة (974هـ). فهو حينئذ غادر مسقط رأسه وهو صغير السن أي في أقل من الرابعة والعشرين من عمره، وفي هذه الرحلة اتصل بعلماء عصره وأخذ عنهم ما استطاع تحصيله مدة تسع (9) سنوات إذ أب الى المغرب سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، ونعتقد أنه لم يستقر به المقام طويلا في مسقط رأسه ماغوس ولكنه توجه الى مراكش حيث عاصمة الدولة السعدية. غير أنه لم يمكث بمراكش إلا أربع سنوات إذ ارتحل مرة أخرى الى المشرق عام سبعة وثمانين وتسعمائة (987هـ). ولا ندري المدة التي قضاها هناك ولا متى رجع الى المغرب واختصاصه بالدولة السعدية، وخصوصا المنصور الذهبي السعدي واستقراره بمراكش.

وبناء على هذا المسار الذي تدرجت فيه حياته تصبح تسميته لا تناقض فيها : الماغوسي، الصنهاجي... من أهل مراكش، كما يقول عنه المقري في «روضة الاس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس»⁽⁹⁾. كما أنه لا تناقض في وصف المشاركة له ب : الصنهاجي ثم المراكشي.

درس صاحبنا في المشرق والمغرب واتصل بعلماء المشرق والمغرب، فقد اتصل بعلماء مراكش وفاس والمغرب الأوسط والأدنى ومصر والحجاز والشام والقسطنطينية العظمى..

وأما ترجمته فيجدها الباحث في المصادر الشرقية مثل : اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، لمحمد البشر ظافر الأزهرى، وفي المصادر الصحراوية مثل : فتح الشكور في معرفة علماء التكرور، لأبي عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الوتلي، وأما معاصروه من المغاربة فقد ترجم له المقري في روضة الآس والفتنالي في «مناهل الصفا» وابن القاضي في «درة الحجال»... وأما المعاصرون المغاربة فقد اهتم به العباس بن ابراهيم التعارجي في كتابه «الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام» والاعلام للزركلي، والأستاذ محمد حجي في أطروحته «الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين» كما حقق أحد الباحثين وهو محمد أمين المؤدب : «اتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب».

اتصل الماغوسي بالدولة السعدية وخصوصا المنصور الذهبي واستقر بمراكش الى آخر حياته، واستقر بدار له كانت معروفة لها بابان أحدهما في أزبظ والآخر بتابناشت وأوقف قريحته على جملة تآليف للخزانة المنصورية. ومما ألفه

للمنصور الذهبي كتاب : «إيضاح المبهم من لامية العجم» سنة 990هـ ورفعته إليه. وكذلك كتاب : «شرح درر السمط في فضائل السبط» لابن الأبار.

على أن له مؤلفات أخرى بالاضافة الى :

1. إيضاح المبهم من لامية العجم.
2. شرح درر السمط في فضائل السبط (نظم الفرائد الغرر في سلك فصول الدرر).
3. اتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب.
4. شرح شذور الذهب.
5. شرح التصريف لبعض مؤلفات أحد العجم.
6. كنز الطالب على شافية ابن الحاجب.
7. فهرس ذكر فيه شيوخه.
8. شرح مقصورة المكودي.

وقد حازت أغلب مؤلفاته قبولا واستحسانا من معاصريه، فقد أطرى محمد بدر الدين القرافي المالكي شرحه للامية المعجم وكذلك فعل ناصر الدين محمد بن محمد بن سالم بن علي الطبلاوي الشافعي، وقد أثبت المقرئ في كتابه روضة الآس خطبتي «إيضاح المبهم من لامية المعجم»، و«إتحاف ذوي الأدب بمقاصد لامية العرب»، وما سلم منها من عاديات الدهر. يجد المهتم نسخا متعددة منه. ومؤلفاته أو ما بقي منها يبين أن هذا العالم يستحق تلك الأوصاف التي كان يوصف بها ويستحق المكانة التي نالها لدى المنصور الذهبي فقد وصفه المقرئ «بالشيخ الماهر الامام المتفطن» وأنه حاز قصب السبق في العلوم عقلها ونقلها».

4 - اقتراحات :

يتبين من خلال استعراض حياة هاتين الشخصيتين الشاويتين أن هذه الناحية من المغرب لم تكن خالية من كل نشاط ثقافي وعلمي، كما توجي به الكتب المؤلفة، إذ تتعرض للمراكز الثقافية المغربية في كل مناطق ما عدا الشاوية.

ولعل من أسباب هذا الوضع أن المثقفين الشاويين كانوا يغادرون مدنهم وقراهم، وهم في سن مبكرة، كما تجلى لنا من خلال حياة هاتين الشخصيتين، فأبو زكرياء يحيى غادر أنفا وهو صغير السن، وسعيد الماغوسي ترك ماغوس وهو دون الرابعة والعشرين، وحينما كان يستقر بهم المقام في إحدى الحواضر الكبرى تتبناهم وتجعلهم من بين أهلها، فتجدهم مذكورين من بين رحلات. مراکش أو فاس أو

غيرهما. ونعتقد أنه يجب رد الأمور إلى نصابها بالقيام بأبحاث دقيقة لضبط
المراكز الثقافية بالشاوية ومعرفة مواقعها وأهميتها عبر التاريخ.

فبالإضافة إلى أنفا وماغوس هناك المنصورة وفضالة ومكول ورابطة
تافنغالت وسطات... وغيرها قد تكشف عنه الأبحاث الأركيولوجية والتاريخية، كما
يتعين القيام بجرد للشخصيات الشاوية المشتملة عليها كتب الرجال المغربية
والمشرقية ونسبتها إلى مساقط رأسها، وجمع الشذرات المتفرقة حول ما ليس له
ترجمة لصنعها له... وإذا ما أقيم بهذا العمل فإنه قد يصبح من اليسير إنجاز
خريطة ثقافية للشاوية عبر العصور مما يدفع عنها تهمة الفراغ الثقافي ويربط
حاضرها بماضيها. والسلام.

د. محمد مفتاح

الهوامش

1. أطروحة للدكتور محمد بن شقرون، منشورة بالفرنسية.
2. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976/1396.
3. لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، (مخ، الخزانة العامة، رقم 1582 د).
4. لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في نكر المعاهد والديار، تحقيق د. محمد كمال شبانة.
5. لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، الجزء الثاني، تحقيق العبادي، والجزء الثالث، تحقيق الاستاذة فاعية الدين سيندك.
6. لسان الدين بن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق، د. محمد الكتاني، دار الثقافة، بيروت، 1970 (ج، 2 ص 467).
7. انظر، رسالة محمد أمين المؤدب في تحقيق، إتحاف ذوي الأري بمقاصد لامية العرب، مرقونة، خزانة كلية الآداب بالرباط.
8. لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، الجزء الثالث، تحقيق السعدية فاعية 1989، ص 90.89.
9. المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية بالرباط، 1964/1983.

القاضي العربي العزوزي ومؤلفه : «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية»

علال الخيمي

مدخل منهجي :

لعل الكثيرين من المغاربة، لا زالوا يجهلون أن أول حرب استعمارية فرضت على بلادهم - في بداية القرن العشرين - كانت هي حرب الشاوية. ولعل الكثيرين منهم، كذلك، لا يدركون بأن المجاهدين المغاربة، الذين واجهوا جيش الاحتلال الفرنسي بالشاوية، قد أبانوا عن بطولات خارقة، وكفاءة عالية، في مواجهة أسلحة الدمار، التي كان يملكها الجيش الفرنسي الذي كان يقوده ضباط تخرجوا من أحدث الكليات الحربية بأوروبا.

ويمكننا اليوم وقد مرت أكثر من ثمانية عقود، من الزمان على حرب الشاوية، أن نتساءل عن القوة التي كان المجاهدون يستمدون منها العون والتأييد؟ وعن السر في صمودهم ذلك الصمود العجيب، في مواجهة مدفعية العدو المدمرة ورشاشاته القاتلة؟

للجواب على هذا التساؤل، يحق للبعض أن يلتجئ لمقارنة ميزان القوى، بين الأطراف المتحاربة، أخذاً بعين الاعتبار - في مقارنته - العوامل العسكرية والسياسية والمادية والطوبوغرافية.

ويحق للبعض الآخر أن يرى، في تحدي المجاهدين المسلحين بأسلحة خفيفة، لمدافع العدو ورشاشاته، وطوابيره المنظمة؛ أن يرى في ذلك، عدم تبصر وتهور، ليس من نتيجة لهما إلا الرمي بالنفس الى التهلكة.

بيد أننا نريد من خلال هذا المدخل - أن ننبه إلى عوامل أخرى كثيراً ما يتجاهلها بعض الباحثين، وكثيراً ما لا ينتبه إليها دائماً في التحليل التاريخي. وبدونها - في الحقيقة - لا يمكن أن نفسر اندفاع الشعوب لصنع التاريخ.

ففيما يتعلق بالمجاهدين المغاربة عامة، وفي الشاوية بصفة خاصة، لا ينبغي أن نتجاهل تلك القيم الأخلاقية العالية، في الرجولة والشهامة وكرامة النفس، المستمدة من الدين الاسلامي الحنيف، التي كان يصهر على غرسها، في نفوس الناس فئة من الفضلاء نذرت حياتها للعلم والتعليم والتربية الروحية.

كما ينبغي أن لا ننسى سهر الجماعات، على مستوى القبيلة والفضة والدوار، على تربية شبابها وتدريبهم على حمل السلاح وركوب الخيل، وتهيئهم للذود عن العرض والأرض والدين وشرف الوطن. مع ملاحظة أن ذلك، كان يجري ويحدث في إطار تضامن جماعي وتكافل بين الجميع، وبتشجيع من أولى الأمر⁽¹⁾.

فالعالم كان ينشر علمه بدون مقابل إذا استطاع لذلك سبيلاً. فقد كان يعلم في بيته أو مدرسته مع إكرام المتعلمين والنفقة عليهم إذا ساعده يساره.

وكذلك كان يفعل المربي الروحي في زاويته، ينفق مما آفاه الله عليه، على الطلبة، ويسهر على تلقينهم مبادئ دينهم.

أما مقدم القبيلة وزعيمها العسكري، فكان يصهر على تدريب الشباب، على كيفية الرمي وركوب الخيل. وينفق من ماله لشراء السلاح وحل مشاكل القبيلة. والجماعة في النهاية تتضامن وتتكافل بين أفرادها لتبرز محاسنها المادية والأخلاقية في أوقات الحرب والسلم.

كل هذه الأعمال، التي كانت تهدف إلى جلب المصالح العامة، كان ينتج عنها تماسك القبائل، وتحسين أحوالها، والمحافظة على الروابط بين سكانها، والاستعداد للطوارئ كلما دعا أمر.

وتجدر الإشارة إلى أن سلاطين المغرب، كثيراً ما كانوا يشجعون القبائل لسلوك سياسة الاستعداد لمواجهة الطوارئ. وتشهد وثائق الدولة المغربية على ما ذهبنا إليه. فجواباً على رساله بعثها السلطان مولاي الحسن، إلى القائد عبد السلام بن رشيد الحريزي الشاوي⁽³⁾. نلاحظ أن السلطان كان قد حدث القائد وإيالته على :

«انسافسة لتحسين الهيئة والحال، والمباهاة بالخزائن⁽⁴⁾ [...] وتكثير المال، وانتخاب العدة، وتكثير سواد المسلمين بصناديد الرجال ..» لأن هذه هي عادة القبائل التي كانت فيما مضى، «كالروضة الغناء والحدائق المزهرة العابقة الأرجاء، معتدّ بهم إذا [حلت] أفرح، أو عرض نزال أو حم كفاح. وخلعت عليهم هيئة الاستعداد جمالها وجددت الشهامة على مناويهم نصالها، فلم يطف ساحتهم معاند ولم يطمع فيهم مكابر». (5).

إنها محاسن حقا ومآثر من العار التنكر لها، ومن العقوق الوطني نسيان ما قام به الأجداد من بطولات وأعمال، مثلت لبنات صلبة في بناء الحضارة المغربية خاصة، والحضارة البشرية بعامّة. ومن سوء حظ قبائل الشاوية - وقبائل مغربية أخرى - أن تتعرض كثير من مآثرها للإهمال، من لدن أصحاب الحوليات، الذين اهتموا بالأحداث السياسية والعسكرية المرتبطة بالحكام أكثر من اهتمامهم بوصف أحوال الناس الذين كانت حركاتهم تساهم في صنع تاريخ بلادهم. هذا، ويكون الإهمال مضراً إذا علمنا أن كثيراً من القبائل مثل الشاوية كانت تتوفر على العديد من العلماء الأعلام. ولكن من حسن حظ الشاوية كذلك، أن واحداً من ابنائها تنبه الى هذا الإهمال. الذي تعرض له تاريخ الشاوية الحديث، وهو يقارن ماشاهده وما سمعه من أعمال بطولية قام بها المغاربة فوق أرض الشاوية لمواجهة الغزو الاستعماري. فقام بما يفرضه عليه الواجب الديني والوطني. بنشر بعض «محاسن ومآثر رجال الشاوية»، هذا الابن البار هو القاضي العربي العزوزي.

من هو العربي العزوزي ؟ : ازداد العربي بن قاسم العزوزي المزمزي الشاوي، بقبيلة المزامزة، وهي إحدى أكبر القبائل بالشاوية الجنوبية، ثم استوطن أهله مدينة سطات، وبها تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وقرأ على بعض علمائها وحفظ الشيخ خليل، ثم شد الرحال - كغيره من طلبة العلم - إلى جامعة القرويين بفاس، حيث تخرج على يد علمائها في علوم العربية والفقه. وإذا كنا نجهل مدى ثقافته العربية فإننا نعلم، أنه تعاطى بعد تخرجه لمهنة التدريس مدة قصيرة بمدينة مراكش سنة 1336 هـ ثم بمسقط رأسه، سطات في السنة الموالية (1337 هـ).

يظهر أن فترة تعاطيه للتدريس كانت قصيرة، إذ لم يلبث أن عين عدلاً بدار ولد زيدوح بقبيلة بني موسى سنة 1339 هـ، وقد ظل في هذا المنصب إلى سنة 1342 هـ، ثم عاد إلى مدينة سطات ليشتغل بالعدالة مدة مديدة، استغرقت حوالي 30 سنة. (6).

وفي سنة 1954/1374 عين لتصفح الرسوم بمجلس الاستئناف بالرباط، لكنه لم يلبث أن عين في السنة نفسها قاضياً في مدينة بني ملال في الربيع 1374 الموافق 1954.

وفي عهد الاستقلال، نقل إلى مدينة ابن احمد بقبيلة امزاب بالشاوية، ومنها عين قاضياً بمدينة وجدة، ثم نقل مرة أخرى إلى مدينة بني ملال. ولما انشئت المحكمة الإقليمية بسطات رجع لبلاده حيث ظل قاضياً بها إلى وفاته سنة 1971.

مخطوط نشر المحاسن والمآثر :

لأنعرف عن تأليف القاضي العربي العزوزي إلا ما ألفه في ميدان التاريخ، وأول مؤلف هو مخطوطه : «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير».

وله مخطوطة أخرى، تناول فيها تاريخ المغرب المعاصر، سماها «سبب احتلال المغرب ...»

يمكننا أن نتساءل عن سبب اهتمام العربي العزوزي بالتاريخ وهو الذي امتهن العدالة والقضاء طيلة حياته. نجد الجواب في مقدمة نشر المحاسن، حيث يذكر الأسباب الآتية :

1. ضرورة معرفة التاريخ لأن علم التاريخ هو أحسن مُرَبِّ للانسان واكمل مهذب له.
2. لأن التاريخ يعرفنا بسير الأولين.
3. للعبرة والاعتبار باعمال الأقدمين.
4. لأن التاريخ، هو الذي يساعده على التعريف بالشاوية ورجالها.

وإذا تساءلنا - كذلك - لماذا هذا الاهتمام بالتاريخ للشاوية ولرجالها فقط، دون الاهتمام بتاريخ المغرب العام؟ نجد الجواب في المقدمة أيضاً، حيث يقول المؤلف: «أردت أن أجيء بجملة مختصرة للمرام من التعريف بالشاوية ورجالها العظام وأن كنت لست أهلاً لذلك. وشجعني على هذا إهمال علمائها لها واحتياجها إلى عطات التاريخ، ومحتاجة إلى معرفة عظماء رجالها، وقد ضاعت بسبب إهمالها رجال وانطمت محاسنهم واندثرت مآثرهم يكاد القلب يتقطر على هذا الإهمال الذي ضيعه أهله» (7) كما ذكر من الأسباب الداعية لكتابته عن الشاوية، رغبته في خدمة بلده ووطنه، لأن من علامة وفاء المرء «حبه لوطنه» (8).

لكل هذه الدوافع، أراد العربي العزوزي أن ينشر محاسن ومآثر بلاده خوفاً عليها من الإندثار، ولذلك سمي تأليفه : «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير». تتألف مخطوطة : «نشر المحاسن» من حوالي 61 صفحة، فقدت منها ثلاث صفحات. والمخطوط مكتوب بخط تصعب قراءته في كثير من الأحيان. ويظهر أن الأمر يتعلق بالمسودة الأولى، التي لم يتمكن المؤلف من إخراجها. قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : خصصه للحديث عن الشاوية عامة، من حيث أصولها وحدودها وتقسيماتها وقبائلها.

وإذا كان الحديث مختصراً، فيما يتعلق بالأصول والحدود والأقسام؛ فإن المؤلف، عمد إلى وصف كل قبيلة قبيلة، من حيث الموقع، ومميزات التربية والانتاج الفلاحي. ثم يتطرق بعد ذلك لهدفه، وهو محاولة التعريف بمآثر رجال كل قبيلة، وتعداد فضائلها من علماء وصلحاء وما تحتوي عليه من زوايا ومدارس ومدرسين.

وبالجملة فقد ركز في وصفه لكل قبيلة على العلم والصلاح والولاية والثروة والجدود والشجاعة، لأن بهذه الأمور يحصل المجد والسؤدد كما قال المؤلف (ص 5).

ولم ينس وهو يتحدث عن القبائل، أن يصف المراكز الحضرية، أي القصبات مثل قصبه سطات، وقصبه برشيد وقصبه ابن احمد وقصبه أولاد سعيد.

الباب الثاني : خصصه المؤلف لعوائد الشاوية، وقد استغرق الكلام في هذا الباب حوالي صفحتين فقط. أشار فيهما المؤلف إلى عادة الحروب والفتن بين القبائل، الناتجة عن العصبية والانتقام. منبها إلى أن ذلك «أمر طبيعي لا تخلو منه أمة ولا جيل». كما أشار إلى عادات أخرى مثل حضور المواسم وللعبة على الخيل والاحتفال بليلة عاشوراء، على الرغم من معارضة الفقهاء وذكر أن «من جملة عادات أهل الشاوية ما كان يسمى عندهم بالدارجة الأمانة وهي إكرام حملة القرآن من جميع قبائل أولاد بورزك، يجتمع فيها أكثر من ألف طالب حافظ للقرآن، وكل قبيلة من القبائل المذكورة تكرمهم وتحتفل بهم غاية الاحتفال ...» (ص 59).

الباب الثالث : خصصه لوصف الوقائع والحوادث التي عرفتها الشاوية في بداية القرن العشرين، واستغرق وصف تلك الحوادث ثلاث صفحات فقط. ولا جدال في أن هذا الباب هو أهم ابواب المخطوط. لأنه يلخص لنا التطورات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي عرفتها الشاوية منذ وفاة السلطان مولاي الحسن. وقد ختم

المؤلف هذا الباب بالاشارة الى حادثة الدار البيضاء (1907)، لكنه لم يتوسع في وصفها وأحال إلى شرح أسبابها في مؤلف آخر.

ملاحظات ختامية :

الملاحظة الأولى : تتعلق باهتمام واشتغال كثير من القضاة المغاربة بالتأليف في التاريخ. ويمكننا أن نتساءل فيما يتعلق بالقاضي العربي العزوزي كيف يشتغل قاضي بالتأليف في التاريخ ؟ وهل يمكنه أن يأتي بما لم يأت به الذين اختصوا بالكتابة في التاريخ ؟ في الحقيقة، يجب أن نشير إلى أن معظم تاريخنا الحي كتبه مؤلفون لم تكن مهمتهم هي التاريخ بالدرجة الأولى.

وبخصوص تاريخ المغرب عامة، وتاريخه الحديث على الخصوص نلاحظ أن مساهمة القضاة في كتابة هذا التاريخ، مساهمة لها أهميتها وقيمتها لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف⁽⁹⁾.

وإذا تساءلنا عن قيمة ما كتبه هؤلاء القضاة، نجد في أول الأمر الإحساس العميق بالوضع الشعبية، والحس التاريخي بقيمة حفظ تراث الأمة ومآثرها من الضياع، وهي الغاية التي توخاها مؤلفنا وهي غاية جليلة بلا ريب.

وإذا أردنا أن نعطي أمثلة محسوسة، عن مساهمة قضاتنا المعاصرين في العناية بتاريخ المغرب الحديث فسنجد فئة غير قليلة من الأسماء مثل :

- أحمد المنصوري، قاضي خنيفرة : «كفاء الغير في تاريخ زيان وأطلس البربر». مخطوط
- أحمد سكيرج، قاضي وجدة - الجديدة - سطات :
- عدة مؤلفات قيمة منها : «الظل الوريث في محاربة الريف» - مخطوط.
- محمد بن عمر بن سودة، قاضي الرمانى : «زعرير قديماً وحديثاً». طبع.
- العربي بن قاسم العزوزي، قاضي سطات : «نشر المحاسن والمآثر...» مخطوط
- هاشم المعروفي، عدل بالدار البيضاء : «عبير الزهور» طبع.
- العباسي بن إبراهيم، قاضي سطات ومراكش : «الاعلام...» طبع.

هذه أسماء على سبيل المثال، وإلا فهناك أسماء كثيرة، منها من تعدى الكتابة في التاريخ.

الملاحظة الثانية : أن القاضي العربي العزوزي، قد سلك، في تناوله لاحداث التدخل العسكري الفرنسي بالدار البيضاء والشاوية، مسلك، مؤرخينا المعاصرين، في السكوت عن فضائح جيش الاحتلال الفرنسي بالشاوية.

بيد أن القاضي العربي العزوزي، كان يحس - فيما يبدو - بهذا النقص ولذلك أحال إلى مؤلف آخر كتبه في عهد الاستقلال وشرح فيه بتوسيع حادثة الدار البيضاء وختم كتابه نشر المحاسن، بالتنبيه إلى وعيه بالمسألة، لكنه لم يتمكن من التفصيل فيها.

قال العربي العزوزي : «وقد أشرت إلى هذه الحادثة وما ترتب عنها من احتلال الشاوية في كتاب غير هذا مبسطة، واني اعترف واعتذر فيما كتبت مما يكون فيه من نقص. كما التمس من الباحثين التنقيب عما هو من خبايا وأسرار الشاوية، وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقاً ان يتجرد لمثل هذا البحث الممتع النافع بعض الذين يعنون بالتاريخ والحمد لله في البدء والختام»⁽¹⁰⁾.

الهوامش

- 1 . انظر أسفله.
- 2 . كان يطلق عليه، أحيانا، مقدم الرمي (جمع رمي). وكان للرمية طائفة تتزعمها. تستمد أصولها من مبدأ الجهاد في الإسلام. وقد اشتهرت طائفة سيدي علي بناصر بالشاوية في هذا الباب.
- 3 . من أشهر قياد الشاوية، تولى القيادة سنة 1869 م، على قبائل اولاد حريز والمذاكرة واولاد علي، وبقي في منصبه إلى وفاته سنة 1903 م، وقد بعث سفيرا إلى ألمانيا سنة 1888 حيث زار في طريقه إيطاليا لتفقد البعثة الطلابية المغربية هناك بأمر السلطان.
- 4 . جمع خزانة، وهي خيمة كبيرة من الكتان، معدة لسكنى الجنود أو للاستعمال خلال الأفراح، ولا زالت مستعملة بكثرة في المغرب اليوم.
- 5 . الرسالة مؤرخة بـ 9 جمادى الثانية 1305 الموافق 15 يناير 1888. عن موضوعها راجع، علال الخديمي، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية. كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1985، ص 196 . 197.
- 6 . اعتمادا على تسويد بخط القاضي العربي الغزوزي نفسه.
- 7 . نشر المحاسن والمآثر .. ص 1.
- 8 . نفسه
- 9 . أتينا بهذه الملاحظة، آخذين بعين الاعتبار الفروق الواضحة في المنهج والمضمون. بين الذين اقتصوا بكتابة التاريخ، خاصة التاريخ السياسي؛ والذين تعاطوا للتاريخ بدافع من الحس التاريخي والشعور بضرورة تسجيل أحداث معينة خوفا عليها من الإهمال والضياع.
- وفي هذه الفئة الأخيرة يدخل كثير من القضاة، الذين اعتمد الكثيرون منهم منهاجا يغلب عليه الوصف الحي المعتمد كثيرا على الرواية الشفاهية والمشاهدة. بخلاف المختصين الذين اعتمدوا مصادر مكتوبة بالدرجة الاولى. فكان النقل غالبا على أعمالهم. فلم يتمكنوا من رصد الاسباب الحقيقية والدوافع العميقة لتحركات الجماهير في البوادي على الخصوص.
- 10 . هذه الفقرة مكتوبة بشكل مغاير لما قبلها، ويبدو أنها كتبت لما تم الفراغ من تفصيل اخبار التدخل الفرنسي بالمغرب في الكتاب الثاني الذي أشار له المؤلف انظر نشر المحاسن، ص. 61.

الندوة الثانية :

فنون الشاوية

محمد يوحيد : مؤثرات الجوار في أداة الايقاع في الموروث الشعبي.
عبد الرحمان الملحوني : الشاوية وفن الملحون.

مؤثرات الجوار في أداة الايقاع في الموروث الشعبي

محمد بو حميد

الموضوع متسع جدا للأسباب التالية : بعد المسافات عن منطقة التأثر وتنوع الهجرات المؤثرة واختلاف زمن التاريخ وتعدد أنماط الموروث التراثي فيما هو مغنى أو رقص، لذلك يشترط الحذر في ثلاث حالات :

1. تحديد الزمن المراد الانطلاق منه

2. تحديد الجهات المؤثرة.

3. جرد الذي كان موجودا أصلا.

أولا : إن الزمن فشاسع قد يتراوح ما بين فترة الاستقرار الأول ويعود الى آلاف السنين وفترة التواصل بين شعوب غرب افريقيا وتقارب العشرين قرنا والفترة الحقيقية للتفاعل وتنطلق من مصطلح القرن الثاني عشر الميلادي على أقرب وجه.

ثانيا : يمكن التسليم بأن الجهات المؤثرة هي الجهات اليابسة شرقا وجنوبا والجهة المائية من الشمال. وللحديث عن التأثير من جهة الشرق نتيجة ارتباطه باليابس فان مصادر التأثير منطلقا قطعا من الشرق الأقصى والأوسط والأدنى ومن الجنوب ابتداء من الضفة الجنوبية لنهر السينغال فما بعدها شرقا وقد أتى هذا

الجانب بفعل أكثر ليس فقط في نمط الأداة المستعملة بل في كثير من الايقاعات والطقوس التي سنحاول قراءتها عند التفصيل.

ولما لم يكن المغرب دولة بحرية إلا في فترات الحاجة فقد جاء التأثير في هذا الباب واضحا مع الفتح المرابطي للأندلس وما تلاه من تعاقب الدولة المغربية العظمى الى القرن الخامس عشر الميلادي.

ثالثا : ولجرد الذي كان موجودا فلا بد من قراءة أخرى تدعو الى تصفح الرقعة المغربية كاملة، ومنها جهات الاستقرار الأول وهي على سبيل المثال الأودية وسفوح الجبال والواحات أي مناطق الانتاج الفلاحي والرعي وطرق القوافل وكذا جهات الاستقرار ومنها البطون الأطلسية وسهول الريف الشمالي.

إن المغرب الأقصى عرف العصور ما قبل التاريخية كلها ولا مجال للاتيان بحجج، فالنتائج الحضرية أثبتت ذلك وما تزال، ومن ذلك نخلص الى أن التجربة الاجتماعية لدى الشعوب العريقة كقيلة بأن تجعل الطقوس الروحية تختلف في المعنى ممايزة لبعضها في المبنى خاصة لما كان الغناء هممة وندنة تحاول إجلاء الغامض والاتصال بالمقدس المعبود ثم تحولت الى رقص تعبيرى يحاكي العوامل الطبيعية والمقدسة لديهم من الحيوانات حتى يقال ان سكان السلاسل الأطلسية قدموا قرابين مصاحبة لتحريك الخاصرة والبطن والأكتاف والرؤوس.

ان نشوء الغناء والرقص في أعرق جهات العالم تاريخا ولا أقدم من بلاد ما بين النهرين ومصر في موروثنا التاريخي لم يكن إلا أداة للاتصال بالآلة «تهاليل الزكورات» في العراق ورقصات الفراعنة في الهياكل، وما آل في بلاد الاعريف من غناء ورقص وتصنيف مسرحي كلها كانت تصب في جداول التصنيف الميتولوجي الذي رقى بالخيال الاغريقي الخصب الى ذروة البيان. والذي آل إلى أروبا الوسطى والغربية عصر الانبعاث لم يكن إلا صورة من صور التأثير البعيد المدى من مفاهيم كانت غيبية أضفى عليها الزمان حلته فأصبحت ذات قالب اجتماعي وسياسي.

والأكيد أن رقصات الأحواش والأحيدوس والهيث والعلوي وما شاكلها هي رقص أساس افرازات لعقائد مختلفة اتخذته خطابا غيبيا موجها لأية قوى إنتبه اليها الانسان المغربي واعتبرها متحكمة في الحياة.

فابتكر أدوات كثيرة أعانته على توجيه الخطاب إليها اما رقصا أو غناء حيث أن الرقص التراثي المغربي لا يمكن أن يكون تظاهرة جسمانية فقط، إذا اعتبرنا أولا الانضباط وتنظيم الصفوف وقوة الايقاع وتطوره وسمه الجلال التي تسم الرقصات

بالإضافة إلى طقوس الأوحاشات والأحيدوسات التي لا تكتمل إلا برفع البصر إلى السماء بين الفينة والأخرى، أو بحركة دائرية تشير إلى الوقت والزمان في اغناءات مبالغ فيها أو تصفيقات بالأيدي وتوقيعات بالأرجل وفي ذلك استنفات للأرواح.

وعلى بعد مرمى حجر من المغرب، ولدى كثير من الشعوب الأفريقية يؤدي الرقص بهذا المفهوم الوضعي، فالرقصات في ساحل العاج دعوات للإله (كيكلان) وهو إله كل شيء، وفي زايير رقصة الحرب، استدعاء لإله القوة قبل الحرب، وفي أفريقيا الوسطى كل الرقصات لإله (أنداكولا) إله الخير في نيجريا للإله (شاكو) إله البرق والرعد وهكذا.

ويحكي سكان غينيا الاستوائية أن طفلا صغيرا رأى هاتفا زائرا علمه الرقص وأمره بتعليم ذلك لكل القبائل حتى يكون الرقص لغة عبادة توحد بينها.

إن المغربي كون خلال تطور ابداعاته نسقا ميتولوجيا متكاملا عبر عنه بالتظاهرة الجسمانية الرشيقة فلم يصلنا منه أي شيء وهو رأي مقبول لأسباب أهمها :

1. بلوغ الاسلام الى المنطقة.
2. تعاقب الفتحين وسهولة الاتصال بالرغم من العوائق المرفولوجية.
3. قيام الدول العظمى على أساس الرباط وأهمها في ذلك دولة المرابطين التي قطعت دابر الوثنية ثم قيام الدولة الموحدية على التوحيد واستمرار الدولة التي تلت على الفتح والجهات متخذة الاسلام الديانة الوحيدة للدولة.

والاسلام لم يأت فجا بل جاء باللغة والعادات والحصيلة الحضرية التي ترعرعت في الشرق وأسدت الستار عن كثير من الموروث الميتولوجي هناك حاملة الآلات الكامنة من أجل صرف النظر عن ما هو وضعي مقدمة البديل. ومع ذلك التقادم بقي الابداع الموروث دون معنى إلا أن يعبر عن ما فوق واقع (سريالي) حال رشيق يراد به أغراض أخرى كإثبات الجدوى والفعالية والفرحة والاستنفار والدود عن الحياط.

هذه فدلكة طويلة يراد منها إثبات أساس لموضوع صعب تناوله بسبب امتداد المسالك.

وخلال تطور الميتولوجية التفسيرية بالمغرب راقب الانسان المغربي ما حوله فوجد الأدوات التالية : الأيدي، الأقدام وكل ما يحدث صدى أو صغيرا أو مهمة وكانت تلك هي الأدوات الأولى لتكوين احتفالية دينية. ثم أصناف أدوات وردت إليه من جهات أخرى يضيق المجال عن تعدادها الى أن بدأ الاتصال

المباشر الذي جاء في صور كثيرة نحاول ان نقتضب في تعدادها ونكتفي بالمر المساحل لجنوب البحر الابيض المتوسط ابتداء من ليبيا : الفينيقيون والقرطاجيون الذين وإن اهتموا بالتجارة الصرفة حملوا أدوات تنبعث منها أنغام وإيقاعات مختلفة نورد منها الكنبيري والرباب وأنواع من الطبول ما تزال لها أشباه في بلاد الشام.

وأتى الرومان بالنفير والصنوج، ووردت مع العرب في فترات متتالية، طبول مسدودة بالحبال ودفوف وليرات أكد ذلك صاحب المعجب في مسار حديثه عن وفود العرب الهيلاليين أوائل عهد الموحدين.

ثم اجتازت بلاد المغرب الأدنى والأوسط أدوات أخرى واردة عن شبه جزيرة البلقان كالغيطة بمقاييسها الثلاثة والنابي الصغير والطبول الصغيرة والزمارات المزدوجة الطويلة ذات القرون.

أما من الجنوب فكان مرور الأدوات مع طريقة النازحين أو الرقيق المستجلب خاصة الطبول الأفريقية الضخمة والقرقبة (كانكا) والطملة (التدزينيث) والأردين وتعرف بالكرة، ولم تمر بالطبع في صورها القائمة المعروفة اليوم إذ كانت الطبول جدوعا من خشب خاص تحدث صدق هاما والقرقبة أيضا عبارة عن دوائر خشبية والتدزينيث كانت عبارة عن كنبيري صغير تحولت بحكم الحاجة الي «تسندير» كبير.

إن غياب المادة الأصلية او انعدامها اضطرت المجموعات التي ميزت الجنوب الي البحث عن حل فصنعوا أدوات تلعب نفس الدور لكن من مواد مغايرة. ومن الأندلس مرت آلة العود والنايات الثلاث والرقص.

والمؤكد ان الأدوات التي عرفت في المغرب هي الأدوات المصنوعة من خشب الجوز أو الطين وهي البندير بأنواعه والكوال بأنواعه الثلاثة وأقلا و«الكسبة» بحكم أنها هي الشائعة وبشكل يكاد يكون شاملا في جميع الموروث التراثي الراقص بالبلاد ولا توجد في بلاد أخرى إلا نادرا خاصة منها البندير الذي يجتاز المساحات الي الشعوب المجاورة لبحر قزوين غربا وهي دخيلة في مصر والجزيرة العربية.

وكذلك يقال عن التعريجة وطملة ناسكويين والهراج الذي هو صورة مكبنة للكوال الطيني واستعملت لدى المجموعات الصوفية خاصة أولاد سيدي هدي وسيدي علي بن حمدوش ملائمة لطقوسهم الخاصة بالشطحات والأذكار.

إنه مرور الأحداث الايقاعية ومعرض الأدوات الوترية لم يأت بحمولة من التغيير في الموروث الراقص بل فقط غير من فعالية الابداع مزودا إياه بإيقاعات

صاخبة أكثر انضباطا وتأثيرا وخاصة في الشرق والشمال وحتى وان حملت تغييرا وهو شيء جائز فلن يكون قد حمل الكثير لأن فترات المرور لم تكن بهجرة بشرية كافية نستطيع الفصل الكثير إلا في فترة المرور الهلالي وهو موضوع آخر.

عدا المرور من الجنوب والشرق فقد كان التأثير فاعلا حيث بلغ حدود الحوز مارا بحوض سوس حيث الهجرة الأفريقية بصورها المختلفة متحركة مع نشاط القوافل السودانية خاصة في العصر السعدي.

والمرور في الفترات المشار إليها جاء بالكثير عدا الأدوات الإيقاعية والوترية المتحدث عنها أنفا فقد حمل أيضا الغناء الأفريقي بالسلم الخماسي بطبوعه التي لا أعلم كيف تضمنت مع مر الزمان تصوفا وشكوى وحملت طقوسا ونمقت أغطية الرأس والأحزمة ببعض المعادن اللامعة وهو موضوع آخر قد نتطرق له في فرصة أخرى إن شاء الله.

الشاوية وفن الملحون
تحليل قصيدة :
«الدرر البهية في مدح رجال الشاوية»
عبد الرحمان الملحوني

* مدخل للموضوع :

بسم الله الرحمان الرحيم.
أيها السادة الأفاضل.
حيّ الله أخونكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
في هذه المُداخلة المُوجزة، أودُّ من صميم الفؤاد، أن أتوجه بالشكر والتقدير
إلى منظمي هذه التظاهرة الثقافية الكبرى، والواعدة بكل خير.
إنها تظاهرة لا تعد اليوم زاوية من زوايا البحث والتقصي في تاريخ هذه
المنطقة، وفي التنقيب عن خفايا هذا التاريخ وأسراره.

نعم، قد يتبادر إلى ذهن المتتبع لأغنية الملحون، أن هاته الأغنية الشعبية تعنى عناية خاصة بدغدغة العواطف، وتنشيط وجدان العامة تنشيطا يسليها ويطربها، ويدخل عليها السرور والبهجة من حين لحين.

وفي هذا الجانب تكثر قصائد «العشاقى» وهو شعر التغزل. وقصائد «التراجم»، ووصف الطبيعة، ويسميه أهل الملحون «بالربيعيات».. وما إلى ذلك من الألوان الأدبية التي شاع صيتها وذاع، وملاً الأسماع.

فإذا كان هذا الجانب من «الترفيه» متداولاً بكثرة في ساحة الانشاد، وله جمهور عريض من العامة والخاصة، فإن هناك جانباً آخر قد اختفى في ساحة الانشاد، ولم يعرف عنه الجمهور المثقف، إلا النزر القليل، والقليل جداً. فمع اختلافه ونذارته في الأشرطة التي تذاع هنا وهناك، وفي المجالس والمننديات التي تنظم في هاته الجهة وتلك، فإنه موجود بين دفتي الكنائش وكراسات الملحون ودفاته .. ومحفوظ بين جانحتي صدور الهواة والقائمين بشؤونهم وقضاياهم.

وهذا الوجه الآخر في فن الملحون، هو ما يعيننا في هاته المداخلة - ولو في عجلة سريعة، وجولة عابرة - التي نسلط فيها الضوء على الشعر الملحون، بمنطقة الشاوية، ونعني ذلكم الانتاج الأدبي الزاخر، الذي تابع به شعراء الملحون، الأحداث والوقائع، وسجلوا - عن طريقه - كل حركة من حركات بلادهم، وكل خطوة خطاها دعاة الاصلاح الديني والوطني تحت زعامة العرش العلوي المجيد، وتحت ظل توجيهاته وإرشاداته، وذلك يوم أصيب الوطن بمصيبة الاستعمار، ويوم كان وجود الغاشم امتحاناً لإرادة جماهيرنا التي قد رصدت - بحبها لوطنها وتضحيتها - كل ما من شأنه أن يزيل تعويق جهادها ونضالها ضد الوجود الاستعماري بالبلاد. فتصدى لمقاومة الدخيل ومناهضة أبناء الوطن الأحرار : سياسيون، وأدباء، وفقهاء، وفنانون، وغيرهم من داخل كل شريحة من الشرائح الاجتماعية. نعم، فالحديث عن مقاومة الشاوية من خلال الشعر الملحون، حديث طريف، ويثير عدة تساؤلات واستفسارات. وكلها يحاول أصحابها أن يتأكدوا من أن هناك شيئاً اسمه الملحون. هل كان رائجا في هاته الربوع، وهذه الديار ؟ كباقي المناطق التي اشتهرت بهذا الفن الشعبي الأصيل، كفاس ومكناس، وسلا، وآسفي، ومراكش، وغيرها من المدن المغربية. والحقيقة حين نتصفح أسماء بعض شعراء الملحون، وخصوصاً تلكم الأسماء التي لمعت في مراكش مثلاً، نجد أن لأصحابها صلة مباشرة بمغطقة الشاوية. فكانت بعض الانتاجات الأدبية التي ظهرت في فترة انتفاضة اساوية كالزازية، والفائنية، والنونية، وغيرها من قصائد الملحون، ماهي إلا

امتداد لصوت شاعر الملحون من مراكش وأحوازها إلى المناطق المجاورة لها، والتي عتا فيها الاستعمار فسادا وصال وتجبر !.

إن منطقة الشاوية قد عرف تاريخ مقاومتها صحوه وبقظة من عامة الشاويين، وذلك يوم اشتد فيها نكث قوى الاستعمار، واتسعت دائرة تأمر أذنايه وحنالته على الشعب المغربي، وعلى حضارته وكيانه، وعلى ثقافته الوطنية وقيمه.

وحين كشف الاستعمار عن أطماعه الخسيسة في المنطقة - على اتساعها - أخذ - بدوره - يدبر للأمر تدبيره، ويستعد له استعداداه الكامل. فرن ناقوس الخطر باحتلال مدينة وجدة عاصمة المغرب الشرقي، ورجت الجماهير الشعبية رجا وهاج غضبها هيجانا فارتفع صوتها الوطني من داخل مشاعرها الصادقة يدوي ويحلحل ويقول في شجاعة وبسالة : «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.»

ولسان حالها مرة أخرى يردد قول الشاعر العربي :

ما رماني رام وراح سليما من قديم عناية الله جندي ...

لقد جاءت ثورة منطقة الشاوية الصامدة لتعلن عن قلقها وحزنها بعد احتلال وجدة. نعم، جاءت انتفاضة الشاويين لتعلن - أيضا - عن صرختها ضد الاستعمار وأذنايه، ولتعبير - أصدق تعبير - عن تواجد الجماهير بالساحة الشرفية، ساحة الوعى، ومقاومة الظالم. فلقد خرجت الجماهير عن بكرة أبيها يوم تطلع الاستعمار إلى إيجاد ثغرة على الساحل الغربي، ليتحكم بها في سد الخناق على اقتصاد المغرب، وعلى صادراته ووارداته ...

نعم، خرجت جموع الشاويين في أكمل عدتها وعددها سلاحا، وإيمانا، وحماسا، وهي تقول في غضب بأعلى صوتها :

«فليقتل الاستعمار ما شاءت له وحشيته، فلن يزيدنا الموت في ساحة الشرف إلا عزة وحياء كريمة، وتشبثا بأرضنا، وقيمنا، وبعرشنا وعقيدتنا...»
كان الاستعمار فوق أرض الشاوية يكره كل موروث شعبي أصيل ترده الشفاه، وتتغنى به الجماهير في أفراحها وأفراحها..

وما أكثر ما عرفت هاته المنطقة من ميراث الأغنية الشعبية الأصيلة ! وما فن «العيطة» إلا سمة من سمات هذا الموروث الغنائي الذي عجت به المنطقة أيام زمان ! وقد نسي الاستعمار كيف أمهله القدر، فعاش على الأمل إلى حين نشوب الثورة القاضية، وحينئذ فاجأته الجماهير من داخل هذه المنطقة بزلزالها ورعدها،

فأمطرت عليه مدرادا من تعنتها وجبروتها، فلم يجد بدا من الاستماع إلى أغانيها
وإلى خطابها الوطني على لسان شاعرها الشعبي وهو يقول :

يا أهل الشاوية صولوا ابعر وسرار
بالجهاد ملجود، خنازر النصرارى !

نعم، إنه خطاب وجهه شاعر الملحون إلى جماعته الشعبية العريضة، فكان
أول همسة أيقظ بها الأديب الشعبي المشاعر الصادقة، وأول دعوة بثها - بإخلاص -
في صفوف الجماهير للذود عن حياض البلاد وحوزتها، وللدفاع بحماس كبير عن
كرامتها وعزتها، وعن أرضها وتاريخها. خطاب وجهه شاعر الملحون عبد الهادي
بناني الفاسي في قصيدته الطويلة والرائعة تحت عنوان : «الدرر البهية في مدح
رجال الشاوية».

وهذا الخطاب بالدعوة إلى الجهاد، هو امتداد لما توجه به شاعر وجدة الأديب
الشعبي هاشم السعداني في قصيدته : «دخول وجدة» والتي يقول في حريتها :

يَا لِإِسْلَامٍ أَبْكَوْا عَلَي دُخُولِ وَجْدَةَ
دُونَ حَرْبِ اغْتِمَافِ لَعْدُو وَنَالَ الْمُرَادِ

والقصيدة الأولى والثانية على نسق ما نادى به الحاج ادريس الجنش من
شعراء الملحون بفاس جماعته الشعبية - وهو يسجل من داخل مدينته صولة العدو
الاسباني في المنطقة الشمالية في قصيدته «التطوانية» والمعروفة في حظيرة أهل
الملحون. وقد تغنى بها الشيخ الجوال في الأسواق، والمواسيم، وفي المحافل
والمنتديات، بل غدت بضاعة رائجة في الحلقة الشعبية التي كان لها جمهورها
وروادها. وإذا تأملنا قليلا في مثل هاته الانتاجات الأدبية من «الشعر الوطني» الذي
أفرزته معاناة شعبنا، فإننا - وبكل إنصاف - نعطي لأصحاب هذا الأدب ما
يستحقونه من عناية وتقدير...

فهذا شاعر ينادي جماعته في منطقة الشمال، وآخر في منطقة الشرق،
وثالث يصرخ في مراكش، ورابعهم في فاس، وخامسهم بالغرب - ومن داخل هاته
المنطقة الاستراتيجية الهامة -، وسادسهم، وسابعهم، وهلم جرا.. نعم، فالكل قد
استعد بأدبياته لاستنهاض الهمم. وتنبيه الناس إلى خطر الاستعمار وأضراره، خطر
يهدد كيان البلاد، ويمكن العدو من استنزاف خيراتها وثرواتها، وتسخير ذلك في
خدمة مصالحه على المستوى القريب والبعيد. !

وهذه الانتاجات الأدبية - التي تدخل في موضوع أدب المقاومة في الشعر
الملحون - تعرف في حظيرة أهل الملحون «بالجفريات». وهو لون من الألوان

الأدبية الرائعة، كان يتنبأ فيه الشاعر بالأحداث والوقائع، وبكل ما يدخل في باب مقاومة الوجود الاستعماري. والجفريات عبارة عن صور من الارتباط التاريخي بالبلاد ارتباطاً وثيقاً. نعم، صور قد توحدت فيها مواقف شعراء الملحنون إزاء مصير مستقبل وطنهم، وحماية لكيانهم ووجودهم من كل تزييف وعبث.

لقد تعززت هذه المواقف بآراء وأفكار ناضجة، قد نبعت من القاعدة العريضة ومن جماعة شيخ الملحن التي كانت تلتف به ويلتف بها، يعانقها وتعانقه في السراء والضراء، وفي الأفراح والأتراح، وهي أفكار جاءت خلاصة ما أبدعه شاعر الملحنون من إبداعات رائعة، وما قد أنجزه من إنجازات عظيمة، كانت كلها - في معظم حقيبتها - في مستوى المخاطبين بها، وذلك على تعدد شرائحهم، وفصائلهم، وفي مختلف الأشكال التعبيرية التي قد احتفظ بها الشعر الملحن القديم، وإلى يومنا هذا !

كان من حظ «الشعر العربي الفصيح» أن وجد - في مختلف الأزمنة والعصور - مجموعة من الأقلام، تناولت جوانب شتى من أدبياته، وأبرزت بعض هذه الدراسات ألواناً من أدب المقاومة عند شاعر الفصيح، في جلاء ووضوح. وظل - مع الأسف - الشعر الملحن - على غزاراته وتعدد مناحيه ومضامينه مغموراً في هذا الباب - لم يلتفت إليه أحد، إلا النزر القليل، ولم يعن به الدارسون والباحثون عند الاستشهاد والتوثيق عنايتهم بالشعر الفصيح. ونحن اليوم - في هذا اللقاء الثقافي - بصدد الكشف عن معالم أدب المقاومة في الأدب الشعبي المغربي الملحن بمنطقة الشاوية، هاته المنطقة التي قد حظيت بعناية كثيرة، من المؤرخين المغاربة والأجانب. أولئك الذين تتبعضوا نضالها ومقاومتها للوجود الاستعماري في وجوه مختلفة من النضال الموصول، ومن التحدي والتعنت والجبروت والكبرياء ! ولقد أفاض في هذا الجانب التاريخي الأستاذ أحمد زيادي في كتابه : «انتفاضة الشاوية سنة 1907» .

وهو يرى في هاته الدراسة المركزة أن تاريخ المغرب يزخر بأحداث وطنية هامة، لو أتيت لها أن تدرس دراسة معمقة ونزيهة لخلصت نفوس الناشئة من سلطان الكثير من المعلومات المغلوطة الشائعة، التي روجها المؤرخون عن حسن نية أو عن سهوئها، وأيقظت لديها الوعي الصحيح بحركة التاريخ، والتبصر الواعي بوقائعه، والتتبع اليقظ لتقلباته، وأعدت إليها الثقة بالنفس، والاعتزاز بالماضي، والإيمان بالمستقبل(1).

وبعد أن ساق الأستاذ أحمد زيادي بعض الاستشهادات من كلام المؤرخين المغاربة الذين تتبعضوا انتفاضة الشاوية. أشار إلى أن هاته الدراسة التي يقدمها في

هذا الموضوع، تعني أساسا باستقراء الأسباب الحقيقية للانتفاضة، واستجلاء ظروفها، واستشفاف أجوائها، واستطلاع أصدائها، وقد قسم هذه الدراسة إلى قسمين :

- قسم درس فيه أسباب الانتفاضة وعواملها المحلية والوطنية، وإرهاصاتنا، وأشار فيه إلى أهم وقائعها، ثم كشف عن الجوانب الوطنية فيها، والتعرض - بإيجاز - أهم نتائجها الإيجابية والسلبية.

- وقسم ثان أثبت فيه بعض الوثائق التاريخية المفيدة، وملاحق أدبية فصيحة وشعبية نادرة، تساعد القارئ على استكمال معرفته حول «الانتفاضة» (1). ويهمننا في هذا القسم الثاني النص الشعبي الذي ساقه في هذا السبيل تحت عنوان : «الدرر البهية في مدح رجال الشاوية».

وقد قال عنه بالحرف الواحد ما نصه :

«هذا نص زجلي، يزخر بقيم لغوية، وتاريخية، واجتماعية، ووطنية، يشيد فيه الزجال عبد الهادي بناني الفاسي بقبائل الشاوية وجهادها للكفار، ويشهر ببعض الخونة الذين هياؤا للقوات الفرنسية أسباب احتلال الشاوية. ويذكر الأسباب الظاهرة للانتفاضة الشاوية بشيء من التفصيل، والدقة، وهو في هذا الجانب يتفق مع العديد من الروايات التاريخية في الموضوع».

كما يتحدث بمرارة وأسف وحسرة على احتلال وجدة من طرف القوات الفرنسية، ويدعو المغاربة إلى العمل بجد وإخلاص لاستردادها. ويختتم زجليته بمدح السلطان عبد الحفيظ، وبالثناء على موافقه وطموحه وسياسته، وبالثناء له بالتوفيق.(3)

نعم يوجد هذا النص الزجلي المشار إليه في كنانيش الملحون القديمة، وهو متداول في حظيرة أهل الملحون، ومعروف عندهم، إلا أنه يعد ضمن النصوص الشعرية التي لم يُعن بإنشادها في محافل التسلية والترفيه، وذلك شأن القصائد الغنائية التي تستهويها النفوس وتنجذب إليها أسماع الجماعة الشعبية في مناسبات أفرانها ومسراتها ...

وإذا كانت أمثال هاته النصوص الشعرية لا تجد رواجاً وديوعاً في ساحات الانشاد عند شيوخ الكريحة، فبم قد انتشرت وذاع صيتها، وأدت أمانتها وكان لها مفعول قوي، ومردود كبير في نفوس الجماعة الشعبية العريضة ؟...

نعم، فالمتأمل في تاريخ الشعر الملحون، والدارس لأحوال الشعراء وظروفهم الاجتماعية بالخصوص، يلاحظ - دون جهد - أن فن الملحون، قد عم الأرجاء.

والأنحاء، وانتشر - انتشار الهشيم في النار - في كل ربع من ربوع المغرب، شرقه وجنوبه، غربه وشماله، بما كان يعرف - يومئذ - بالوسط الشعبي التقليدي بظاهرة «الشعراء الرحل». وهي ظاهرة فنية عملت على نشر فن الملحون، والتعريف بكنانيشه وكراساته ودفاتره، وإلى اليوم، لم تجد - مع الأسف - من يتصدى لمدراسة نتائجها والتعرف عليها. نعم، كان أهل الملحون يقومون برحلات استطلاعية عبر مناطق المغرب، خلال فصول السنة - وهكذا، فقد عرفوا رحلة الربيع بمراكش وفاس وما يجاورهما من مناطق ومُدن، وعرفوا رحلة الصيف بمناطق الغرب ومُدنه، ورحلة الخريف بمناطق الجنوب ومُدنه، ورحلة الشتاء بمناطق تافيلالت وشرق المغرب. وإلى جانب هذه الظاهرة، فهناك ظاهرة اجتماعية أخرى، وهي ظاهرة «الشيخ الجوال».

نعم، فالظاهرة الأولى يعتمد مفعولها وعطاؤها على نشاط «الخرّانة» الذين يرافقون بعض شعراء الملحون في هذه الرحلات، وهم الذين يجمعون نفائس الكنانيش، وكراسات ودفاتر الملحون. وكانوا يطلقون عليها : «وَرِيقاتُ الذَّهَبِ» نظرا لقيمتها، وطريقة إعدادها وتجليدها، ولا تزال بقية من هاته الكنانيش بالخرّانة الملكية، و ببعض المكتبات الوطنية، والخرّانات الخصوصية.

والظاهرة الثانية تعتمد في الأساس على جماعة المنشدين المتجولين، أولئك الذين يجوبون الأسواق و يقيمون بها محطاتهم قد تقتصر أو تطول، والذين يتجولون في المدن العتيقة بمناسبة ما يُنظَّمُ بها من مواسم وأعياد دينية، وكذلك الذين اشتهروا كرواد الحلقة الشعبية التي يشهد نشاطها الفني عدد من الساحات العمومية، كساحة باب سيدي عبد الوهاب بوجدة، وساحة جامع الفناء بمراكش، وساحة باب بوجلود بفاس، وغيرها من الساحات التي عرفت رواجا كبيرا للشعر الملحون والمرددات الشفاهية.

وعن طريق هاته القنوات قد وصل فن الملحون إلى منطقة «الشاوية» وفيها تغنى سكانها بروائعه، أولئك الذين كانوا يهون «العيطة» بجميع فروعها وألوانها، وهي تتلاقى في كثير من معالم الفنية والإبداعية بالقصيدة الرّجّلية في المعنى والمبنى ..

أيها السادة الأفاضل :

لقد كان بودّي أن أحلّل قصيدة «الدرر البهية، في مدح رجال الشاوية» على طولها، وتعدد أبياتها ومضامينها، وأن أحاول - أيضا - أن أتعامل معها من خلال ربط النص بصاحبه، وانطلاقا من الظروف الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي يعايشها الشاعر الشعبي شيخ الملحون.

وبهذه الطريقة - منهجا وتحليلا - قد تعاملت على ضوءها مع قصيدة :
«دُخُولٌ وَجُدَّة» التي يؤرخ فيها الأديب الشعبي هاشم السعداني احتلال المدينة من
طرف القوات الفرنسية سنة 1907، وهو بحث تقدمت به في إحدى اللقاءات الثقافية
التي نظمتها جامعة محمد الأول بوجدة «كلية الآداب والعلوم الانسانية» سنة
1986.

وإني أمل أن يأخذ مني موضوع : «أدب المقاومة» بهاته المنطقة من خلال
قصيدة «الدرر البهية في مدح رجال الشاوية» مضيفا إليها بعض النصوص
الثرائية في هذا الباب ما يستحق من عناية على نسق ما فعلناه بالنسبة لقصيدة
«دخول وجدة». الشيء الذي يجعل هذه المداخلة القاصرة عن غرضها المنشود،
مدخلا لبحث معمق يعطي صورة واضحة القسما وألمعالم عن أدب المقاومة
بالشاوية على ضوء ما بأيدينا من نصوص تراثية من «أدب الملحون»...

أبها الحضور الكريم، شكرا لكم على حسن انتباهكم وتنبعكم لهاته
المداخلة.. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش

1. أحمد زيادي، انتفاضة الشاوية سنة 1907، ص 06.
2. أحمد زيادي، انتفاضة الشاوية سنة 1907، ص 08.
3. نفس المرجع المذكور، ص : 73.

الندوة الثالثة :
الشاوية ؛ تاريخ ومقاومة ونهضة

عبد العزيز الغزال : الشاوية في العصر الوسيط.
محمد بوجميل : مقاومة الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي.
غازي مختار : الحياة العلمية من خلال رجالات الشاوية.

الشاوية في العصر الوسيط

عبد العزيز الغزال

مقدمة :

إن أية محاولة للبحث في تاريخ الامارات الخارجية عامة والبرغواطية خاصة، لا بد أن تواجه مجموعة من المعوقات على رأسها ندرة المصادر والوثائق وتضاربها وتحاملها الشديد على هذه الامارات. وهكذا فرغم الامتداد الزمني الذي يناهز 4 قرون، والمكاني (منطقة تامسنا) لامارة برغواطة، فإن الكشف عن تاريخها تواجهه صعوبات كبرى في مقدمتها قلة المصادر. فالبكري والمقديسي وهما جغرافيان الأول من الأندلس والثاني من الشرق، اتسمت كتاباتهما بالتحامل والتناقض وطغيان الخرافات والأساطير، فضلا عن اعتمادهما في غالب الأحيان على روايات الآخرين. وعن الشخصيتين أخذ اللاحقون كابن عذاري وابن أبي زرع وابن حوقل... وكلهم في نفس الهفوات التي سقط فيها كل من البكري والمقديسي. باستثناء ابن خلدون الذي استعمل كالعادة في كتابته حول برغواطة فكره التاريخي النقدي العلمي، فساهم بذلك في توضيح نسبي لتاريخ هذه الامارة.

أما المحدثون فنذكر منهم محاولة شارل اندري جوليان وكتابات مارسيل وسلوش والتي زادت الغموض على تاريخ الامارة. وهكذا أرى في المحاولة التي قام

يها الدكتور محمود اسماعيل عملا جادا لذا ستعتمد مساهمتي المتواضعة هذه أساسا على ما قدمه من خلاصات واستنتاجات منطقية. وسأركز في عرضي على نقطتين الأولى : أصل البرغواطيين والحيز المكاني لنفوذهم. والثانية : الأطار التاريخي لظهور البرغواطيين.

1 - أصل البرغواطيين والحيز المكاني لنفوذهم :

بالنسبة لأصل قبيلة برغواطة، فقد اختلف المؤرخون حوله، فالبكري وقع في خطأ حين فصل بين نسب رأس الأسرة الحاكمة، وبين نسب القبيلة التي اعتنقت المذهب البرغواطي، فزعم أن طريقا كان يهوديا أندلسيا من بلد شدونة من وادي «بربيط». ومن ثم أطلق لفظ «بربيط» على كل من دخل في مذهبه. ثم حُرِّفَت الكلمة على السنة العرب، فقالوا «برغواطة». وقد انزلق جل المؤرخين اللاحقين في نفس الخطأ، حيث قال البعض إنهم كانوا قوما جهالا من زناتة. ورأى ابن الخطيب ثم ابن زرع أن برغواطة أخلاط شتى لا يرجعون الى أصل. وترتب عن ذلك اختلافهم حول نسب «طريف» فابن الخطيب يرده الى مصمودة وابن ابي زرع على غرار البكري اعتبره يهوديا أندلسيا، واكتفى ابن عذارى بقوله بالاصل الأندلسي لطريف دون رده لليهود. هذا الاختلاف حول أصل برغواطة يرده الدكتور محمد اسماعيل الى تحامل المؤرخين على برغواطة بقصد طمس أصوله، وهم نسبها الى قبائل البربر، فضلا عن تشويه أصل زعيمها برده الى اليهود. لكن هذا الخلاف يحسم فيه ابن خلدون الذي فحص المشكلة وكشف عن اصطناعها. فقد اهتم ابن خلدون بأصل قبائل البربر وأماكن استقرارها لذا فنَّد كل المزاعم حول أصل برغواطة وأكد على أنها قبيلة من المصامدة يقول :

«هم الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الاسلام التقدم والكثرة، وكانوا شعوبا كثيرة متفرقين، وكانت مواطنهم في بسائط تامسنا... وقد يغلط الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدونهم من قبائل زناتة وآخرون يقولون في صالح أنه يهودي... وهو من الاغاليط البينة، فليس القوم من زناتة ويشهد بذلك كله مواطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة، وأما صالح بن طريف فمعروف فيهم وليس من غيرهم ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل المنقطع جذره دخيل في نسبه سنة الله في عبادته، وانما نسب الرجل في برغواطة وهم شعب من شعوب المصامدة...».

هكذا إذن حسم ابن خلدون في القضية وأكد على مصمودية برغواطة بدليل الجوار والاحاطة، كما أكد على انتساب طريف الى القبيلة وبذلك أصبح موقفه معتمدا من طرف اللاحقين والمحدثين، فابن حزم أكد على مصمودية برغواطة، كما

أكد أيضا ذلك شارل اندري جوليان. أما الاسطورغرافيا المعاصرة فقد مالت الى ترجيح كفة رأي ابن خلدون لأنه أقرب الى المنطق والصواب (ابراهيم حركات - جورج دارك - روني باسي - لوتورفو - محمود اسماعيل - ابراهيم خلف - النقي العلوي). أما كاتب مادة مه مودة في دائرة المعارف الاسلامية، فيقسم المصامدة الى ثلاث مجموعات الأولى في الشمال من البحر المتوسط الى سبو وورغة وتسكن فيها غمارة، والثانية في الوسط من سبو الى أم الربيع وتسكن فيها برغواطة، والثالثة في الجنوب من أم الربيع الى المحيط الأطلسي وتسكن فيها مصمودة بالمعنى المحدد. وخلاصة القول أن هناك إجماع النصوص المصدرية المتأخرة والأعمال التاريخية المعاصرة حول أصول برغواطة المصمودية.

- الحيز المكاني للإمارة البرغواطية :

ما هي حدود التوطين الجغرافي الذي تبلورت فيه حقيقة المسألة البرغواطية ؟ والى أي حد ساهم هذا الموقع في انجاح هذه التجربة الفريدة من نوعها في إطار تاريخ المغرب الوسيطى ؟

أول إشارة لهذا التحديد نجدها عند ابن حوقل وهو جغرافي متنقل يقول : «... ورباطهم على برغواطة من قبائل البربر على البحر المحيط» أما البكري الجغرافي الأندلسي الذي عاصر الإمارة في مرحلة قواها فيضيف : «وهي الأرض التي تبدأ في موضع مدينة الرباط وتمتد الى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها... وتنتهي عند أزموور على مصب أم الربيع...». أما ابن خلدون فيرسم حدودا أوسع خاصة من جهة الجنوب فيقول : «تنزل حشم تامسنا الأفنج ما بين سلا ومراكش» أما الحسن الوزان صاحب كتاب وصف إفريقيا فيضع فيها تحديدا لا يخلو من انحرافات. تنم عن اختلاط الأمور عليه حيث يقول : «يبتدا إقليم تامسنا غربا بأم الربيع وينتهي الى ابي رقراق شرقا والاطلس جنوبا وشواطئ البحر المحيط شمالا...».

انطلاقا من كل هذا نرى الى أي حد يصعب رسم خريطة دقيقة لرقعة برغواطة ووضع حدودها.

أما الدراسات المعاصرة فتشير الى توطين عبد الله العروي الذي يرى أنها تبدأ من أغمات بمحاداة تانسيفت وتنتهي الى الرباط. ثم ميشو بلير الذي كتب : «يقال ان امارتهم تمتد على طول المحيط من أسفي الى سلا وقد تنتشر داخل البلاد.» أما الدكتور محمود اسماعيل فيقول : «إن الدولة قامت في إقليم تامسنا

الذي كانت تضرب فيه قبائل برغواطة، ويمتد على ساحل البحر المحيط فيما بين جبل طارق واودي ام الربيع، وهو اقليم متنوع التضاريس يجمع بين الجبال الكفيلة بالحماية والسهول الممتدة للزراعة».

من كل هذا نخلص الى أن الخاصية المميزة لمنطقة تامسنا تتمثل في بساطة تضاريسها، ولعل هذا ما يفسر كلمة تامسنا البربرية التي تعني «البسيط والخالي» والتي طالما جذبت الرحالة بخصبها وكثرة زرعها من جهة، وأثارت اطماع القوى المجاورة من جهة ثانية، كما أن هذه الظروف الطبيعية ساعدت على عزل الاقليم وصلاحيته لاقامة إمارة تعتمد على امكاناتها الاقتصادية وتحقق الأمن داخل حدودها. فوحدة الاقليم وعزلته تتجلى في وصف المقديسي له : «خلف البحر مقطوع». وامكانياتها الاقتصادية تظهر في امتداد سواحله وسهوله الواقعة مما جعل منه اقليما زراعيا كبيرا. لكن هذا الرخاء الاقتصادي الذي جعل الاقليم مستقلا بنفسه عن الحاجة، وجه إليه اطماع الدول المجاورة. ومرة أخرى يتدخل العامل الجغرافي لحماية برغواطة من خطر الغزوات رغم كثرتها وتتابعها، حيث ظلت الامارة البرغواطية صامدة في وجه اعدائها. فقد كانت الامارة الوحيدة في المغرب التي نجت من خطر الفاطميين وأثارت المتاعب للأدارسة والمرابطين والموحدين. استمرت تسيطر على اقليم تامسنا ما يزيد عن 4 قرون.

كما أن التأثير الجغرافي يبدو واضحا في عقيدة برغواطة حيث ظلت محافظة على المذهب الخارجي الصفري.

هذا عن الاطار المكاني لبرغواطة. أما عن معنى كلمة تامسنا فأشير في البداية الى الاختلاف على المستوى الصوتي : تامسني = البكري - تمسنة = أحمد المكنامي - تامسنا = ابن خلدون والوزان. والنسبة اليها في اللسان العربي مسناوي والبربري أمسناو. أما على المستوى الطوبونيمي للكلمة فتامسنا كلمة بربرية بلهجة زنانة ومعناها «البسيط الخالي» كما أن هناك من يرى أن الكلمة مشتقة من كلمة تميزيرين أي الشعير وقد كانت زراعته مزدهرة في هذه المنطقة. وهناك رأي ثالث يقول بأن الكلمة تُعنتُ بها آلة طحن الحبوب «الرحى» على كل ذلك يمكن القول ان تامسنا تعتمد أساساً على النشاط الزراعي.

2 - الاطار التاريخي العام لظهور البرغواطيين بتامسنا:

ارتبط ظهور الامارة البرغواطية، بظهور المذهب الخارجي بالمغرب في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري. أي بعد بدأ فيه المغرب يستقل عن

الخلافة الأموية بسبب سياسة الولاة الأمويين المحجفة تجاه البربر باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز. حيث يجمع كل المؤرخين على سوء معاملة ولاة العصر الأموي الأخير للبربر وارهاقهم بالمغارم والجبايات، بل اعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام. وهكذا تسبب الولاة الأمويين في المغرب في إثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء الأمويين على السواء، مما أوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج. وهكذا كان الظلم الاجتماعي الذي انتشر في بلاد المغرب من صنع الخلافة وولاتها وهو أمر ساعد البربر الذي أسلموا على اعتناق مبادئ الخوارج التي تحضُّ على الثورة على الجائرين من الحكام.

ومن بين فرق الخوارج الكثيرة ظهرت بالمغرب فرقان فقط : الأباطية والصفرية، وقد انتشر المذهب الأخير في المغرب الأقصى الذي اعتنقه بربر برغواطة في وقت مبكر على يد طريف بن شمعون الذي لقي «عكرمة» داعية الصفرية في القيروان. وأخذ عنه مذهبه، ثم عاد لنشره بين قومه. وكان طريف ذا شهرة طيبة بين بربر المغرب الأقصى لبلائه في فتح الأندلس اذ تولى قيادة البرغواطيين في الحملة التي قام بها موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد. لذلك استجابت برغواطة للدعوة الجديدة وساهمت في الثورة الخارجية التي اندلعت سنة 121هـ بزعامة «ميسرة» وبذلك تأسست الامارة البرغواطية التي امتدت الى القرن السادس الهجري، والتي تعاقب على حكمها : طريف - صالح - إلياس - يونس - ابو غفير - أبو الانصار - ابو منصور - عيسى.

وقد مرت الامارة البرغواطية منذ ظهورها بعدة مراحل : مرحلة القوة والتوسع منذ ولاية يونس بن إلياس سنة 176هـ. لكن اتساع الدولة البرغواطية اثار مخاوف الأدارسة حيث توجه ادريس الثاني لقتالهم وقد انتهت الحرب بهزيمة يونس وقتله. فخضعت تامسنا للادارسة بدليل الثغرة التي نجدها في الدولة البرغواطية، اذ لم يتقلد ابو غفير الامارة إلا سنة 271هـ. غير أن برغواطة استطاعت التحرر من سيطرة الأدارسة حيث تمكن ابو غفير من السيطرة على مقاليد الأمور في تامسنا. وحكم البلاد على سنة أسلافه. وقد امتد حكمه الى غاية 300هـ تمكن خلالها من استرجاع نفوذ برغواطة وسيطرتها، ليس فقط على اقليم تامسنا، بل على معظم بلاد المصامدة. وترك بعد وفاته إمارة قوية تولى مقاليدها من بعده ابنه عبد الله ابو الانصار 300هـ - 342هـ. الذي يصفه ابن خلدون «كثير الدعة مهاب عند ملوك عصره، يهادونه ويدافعونه بالمواسلة...» وقد استمر العهد الذهبي لبرغواطة طوال عهد ابنه منصور عيسى، 342هـ - 352هـ. فبرغم صغر سنه اشتد أمره وعلا سلطانه. وبذلك كانت برغواطة القوة الضاربة في المغرب الاقصى انذاك.

خاتمة :

رغم أن جل المصادر والمراجع لا تشير الى استمرارية الامارة البرغواطية بعد 352هـ فالغالب أن برغواطة ظلت تلعب دورا مهما في تاريخ المغرب حتى منتصف القرن السادس الهجري. ويفهم ذلك بتتبع علاقاتها الخارجية حيث تعرضت لغزوات مستمرة من القوى المجاورة ابتداء من الادارسة والمرابطين والموحدين الذين قضوا على الامارة البرغواطية في منتصف القرن السادس الهجري.

الببليوغرافيا :

- 1 . أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب.
- 2 . ابن حوقل : صورة الأرض.
- 3 . الحسن الوزان : وصف أفريقيا.
- 4 . ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
- 5 . ابن دحية الكلبي : المطرب في شهر المغرب.
- 6 . ابن الاثير : الكامل في التاريخ. الجزء الثالث.
- 7 . عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر. الجزء 6.
- 8 . محمود اسماعيل : مغربيات - دراسات جديدة.
- 9 . عثمان عثمان اسماعيل : تاريخ شالة الاسلامية.
- 10 . التقي العلوي : مجلة البحث العلمي العدد 28 يوليوز دجنبر 1978.
- 11 . إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ - الجزء الاول.
- 12 . لحسن بولقطيب : حول مفهوم القبيلة (ملحق الاتحاد الاشتراكي 1987).
- 13 . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي - الجزء الثاني.
- 14 . لحسن الجنعاني : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي.
- 15 . عبد الله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب.
- 16 . L. Galard : **Baquates et Berwata**. Hesperis Tome 35. 1948
- 17 . M. Bark Redjala : **Les Barghawata** (origine de leur nom)
- 18 . J. Berque : **Maghreb**.
- 19 . Charles André Julien : **Histoire de l'Afrique du Nord**
- 20 . Dossy : **Essai sur l'histoire de l'Islam**
- 21 . J. Marcy : **le dieu des Ahādites et Berghwata**, Hesperis
- 22 . R. Bassy : دائرة المعارف الاسلامية : المجلد 3
- 23 . ملود عشاق : ملاحظات حول المسألة البورغواطية : الملحق الاتحاد الاشتراكي 1990.
- 24 . Mahoum Slouch : **Empire des Barghawata, les origine de Blad Sebta**

مقاومة الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي

محمد بو جميل

مقدمة :

شكلت الشاوية بحكم موقعها وخيراتها المتنوعة وطاقاتها البشرية الهائلة أحد أهم المناطق المغربية التي تكالبت عليها الاطماع الامبريالية الأوروبية منذ القرن 19م، حيث تعرضت المنطقة للتسرب والتغلغل الأوروبي الاستعماري الذي خلخل البنيات الاقتصادية والاجتماعية والمحلية، وهاكل الظروف لاحتلال المنطقة سنة 1307 أي قبل فرض نظام الحماية على المغرب، لكن قبائل الشاوية واجهت ذلك التغلغل وقاومت هذا الاحتلال بكل الوسائل المتوفرة لها وساهمت الى جانب بقية الشعب المغربي في تحطيم اسطورة التفوق الاستعماري بارغامه على الانسحاب من المغرب والاعتراف باستقلال البلاد سنة 1956.

فما هي إذا مظاهر التغلغل الاوربي بالشاوية قبل 1907 وانعكاساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؟ وكيف قاوم سكان الشاوية الأمر الواقع الذي حاولت فرنسا فرضه عليهم باحتلال اقليمهم سنة 1907 ؟

I - التغلغل الاستعماري في الشاوية قبل 1907 وانعكاساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

ارتبط التغلغل الأوروبي في منطقة الشاوية بالضغوط الاقتصادية والعسكرية والديبلوماسية التي تعرض لها المغرب طيلة النصف الثاني من القرن 19م والتي تمثلت أساسا في فرض معاهدات مست بسيادة المغرب وفتحته أمام نهب الرأسمالية (معاهدة 1856 مع إنجلترا - 1860 - 1861 مع إسبانيا - 1863 مع فرنسا...)، ولما كانت حاجة الأوروبيين تتمثل أساسا في الحصول على أسواق غنية ومواقع استراتيجية فقد ركزت بشكل خاص على منطقة الشاوية حيث تزايدت مصالح التجار الأوروبيين بالبيضاء وتقوت اتصالاتهم بسكان الشاوية، فواكب ذلك انتشار واسع للحمايات الفردية والمخالفات الأمر الذي وفر للأوروبيين قناة فعالة للتمركز بالمنطقة ونهبها وتفكيك بنائها الاجتماعية التقليدية، والتأثير سلبا على علاقة المخزن بسكانها. ومن مظاهر التغلغل تكوين عدة مؤسسات ودور تجارية أوروبية بالبيضاء وارتفاع عدد الجاليات الأوروبية وتعيين قناصل أوروبيين بها، وهكذا عرفت الدار البيضاء توسعا كبيرا يفسر التحول العميق الذي عرفته الشاوية فيما بعد، فمن مدينة صغيرة (9.000 ن 1984 الى 25.000 ن سنة 1907).

كما أصبحت أول ميناء بالبلاذ، هذا التوسع صاحبه تحول واضح في علاقة المدينة بالبادية. فخلال القرن التاسع عشر لم تكن لقبائل الشاوية علاقة قوية بالبيضاء لأن جل هذه القبائل كان يتعاطى للزراعة وتربية الماشية غير مثال بما يجري في المدينة.

أما النظام الذي ساد في الشاوية فتميز بسيطرة القواد والاعيان على حساب الفلاحين الفقراء. ومع بداية التغلغل الأوروبي بالمنطقة ظهر قطاع عقاري جديد فمن هم المستفيدون من هذا التحول؟ الأوروبيون: ابتداء من 1880 تزايدت عدد الدور التجارية الأوروبية وتمكنت من الحصول على امتيازات عقارية مهمة وامتلاك قطعات كبيرة في الأقليم، مثلا الشركة المغربية امتلكت 7.000 هـ بالشاوية وامتلك الالمان 2.000 هـ وكذلك الانجليز. وكان الأوروبيون يستغلون مساحات واسعة أخرى عن طريق الوسطاء والمحامين، ومع ذلك ظلت الهيمنة الأوروبية محدودة الى غاية 1908 حيث تزايدت بسرعة بعد ان احتلت فرنسا الشاوية والى جانب الأوروبيين استفاد بعض اليهود والمسلمين والوسطاء والمحامين الذين تمتعوا بنفوذ اقتصادي وسياسي كبير وقد بلغ عددهم سنة 1907م / 10.000 ن في المنطقة، ومقابل ذلك ازدادت وضعية الفقراء والمياومين تدهورا وقد ترتب عن ذلك توتر اجتماعي كبير وهجرة قروية واسعة خصوصا في اتجاه البيضاء، وإذا كان

التغلغل الأوروبي بالمنطقة هو السبب الرئيسي للأزمة التي عرفها مجتمع المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر، فهناك سبب آخر يظهر في ضعف السلطة المركزية، فالمحاولات الإصلاحية التي أقدم عليها المخزن أثارت معارضة جزء مهم من النخبة القروية، وهكذا نجد كما هو الشأن بالنسبة للتغلغل الأوروبي أن هذه الإصلاحات أفرزت فئتين متعارضتين فئة مستفيدة شكلت أساسا من موظفي المخزن، وفئة متضررة تشكلت من الأعيان، وهكذا اصطدمت تطلعات المخزن الإصلاحية بتطلعات أعيان النخبة المحلية. فحاجات المخزن المتزايدة دفعت القواد إلى التشدد والزيادة في الضرائب الأمر الذي أثار معارضة الأعيان فاندلع صراع بين الطرفين ولجأ عدد كبير من النخبة المحلية إلى الحماية الأجنبية للتخلص من الالتزامات الوطنية وحماية ثروته. ومع حلول 1903 بلغت الأزمة الفلاحية - بالشاوية مستوى خطيرا، وفي غياب نخبة مثقفة وعلمية متجذرة بالبيضاء كما هو الشأن بالنسبة للمدن التقليدية الأخرى، يسهل على الأوروبيين التغلغل بالمنطقة وتوجيه مصيرها.

وهكذا تخلص إلى أن ضعف المخزن وثقل التدخل الأوروبي بالشاوية سيكون له انعكاسات خطيرة على المنطقة، فهما المسؤولان عن التحولات التي ستعرفها : انهيار البنية التقليدية بالمنطقة واندلاع صراع قوي داخل النخبة بين أولئك المرتبطين بالمخزن وأولئك المرتبطين بالأوروبيين. أمام هاتين القوتين حاول سكان الشاوية مقاومة الطرفين ومن هنا اندلعت الانتفاضة الفلاحية الكبرى بالشاوية سنة 1903 والتي يحلو للمواطنين الاستعماريين نعتها بـ «السيية»، وإذا كان التغلغل الأوروبي هو المسؤول الرئيسي عن الأحداث التي عاشتها الشاوية خلال هذه الفترة، فيظهر أن انفجارها جاء نتيجة مباشرة لأزمة المخزن العامة (قتل الإصلاحات، إندلاع انتفاضات خصوصا انتفاضة بوحامرة...) أما مظاهر هذه الانتفاضة فتجلت في تشكيل مجموعات كبيرة من الفلاحين الثائرين (الجوقات) والتي أصبحت تهاجم قصبات القواد، واندلعت الانتفاضة في أولاد بوزيري، وأولاد سعيد في خريف 1902، وانتشرت منذ 1903 في كل أنحاء الشاوية حيث تعرضت قسبة سطات وبرشيد إلى الحرق والنهب، ويعتبر الشريف البوعزاوي من أهم زعماء هذه الانتفاضة التي استهدفت هدم القصابات والقضاء على موظفي المخزن المحليين.

ولا يمكن اعتبار هذه الانتفاضة ثورة طبقية وإنما هي صراع بين فئات النخبة المحلية، أما أهم نتائج هذه الانتفاضة، فتظهر في اكتساب قبائل الشاوية تجربة وقدرة قتالية ستوظف لاحقا لمواجهة الاحتلال الفرنسي، فكيف تحول أعيان النخبة الشاوية من مواجهة المخزن إلى مواجهة الاحتلال الفرنسي؟ يمكن القول أن مقاومة

الأوروبيين التي اندلعت بالبيضاء في يوليو 1907 هي تطور منطقي للأحداث التي عرفها المغرب محليا ووطنيا فالتوقيع على ميثاق الجزيرة وما ترتب عنه من تزايد التغلغل الاستعماري أصبح يشكل خطرا أكبر على النخبة الشاوية لذلك لا نستغرب إذا وجدنا البوعزاوي وولد الحاج حمو مثلا - يؤيدان السلطان المولى عبد الحفيظ ضد أخيه عبد العزيز، وهما الزعيمان اللذان سيقودان الجهاد سنة 1907، كما قاد انتفاضة 1903. ويضاف لكل هذا أن قبائل الشاوية تضررت كثيرا بجفاف 1905 - 1907، فازدادت بؤسها، لذلك، أصبحت مستعدة لمقاومة الاحتلال الفرنسي لمنطقتها.

خلاصة القول هو أن التدخل الأروبي بالشاوية خلخل المقومات الاقتصادية والاجتماعية وافتعل صراعا بين المخزن واعيان المنطقة ليهيء بذلك كل الظروف لاحتلالها.

II - الاحتلال الفرنسي للشاوية والمقاومة المسلحة :

إذا كانت فرنسا قد اتخذت قبل أربعة أشهر، من قضية اغتيال الدكتور موستان بمراكش ذريعة لاحتلال وجدة ونواحيها، فإنها قد افتعلت حادث 30 يوليو 1907، فرصة لاحتلال الدار البيضاء والمناطق المجاورة لتضع العاصمة فاس بين فكي ملقط، ويتجلى ذلك الحادث في قتل المغاربة لتسعة عمال أوروبيين يوم 30 يوليو 1907، والذي يعد بخلاف ما تصور به الكتابات الاستعمارية من هيمنة وتوحش وكراهية المغربي للأجنبي، تتوجها لنقمة المغاربة المعترزين بوطنيتهم على التغلغل الاستعماري وتهاون المخزن تجاه ذلك. هذا الحادث كان كافيا بالنسبة لفرنسا لإرسال حملة عسكرية لاحتلال الدار البيضاء مدعية ان الهدف من ذلك هو استتبات الأمن بالمدينة، وهكذا اعطيت التعليمات لتوجيه الحملة الفرنسية من الموانئ الجزائرية نحو الدار البيضاء، بينما أقدم أوليفي Olivier قائد الباخرة الحربية غاليلي الراسية بميناء طنجة على إرسالها الى الدار البيضاء التي وصلتها في فاتح غشت 1907، وفي 5 غشت أطلق الجنود الفرنسيون نيرانهم على المغاربة، وبعد ذلك وصلت باخرتين حربيين جديدين وشرعتا في قنبلة المدينة. ورغم المفاجأة الوحشية التي تميزت بها مذبحة البيضاء، فإن احتلال المدينة كلف فرنسا وقتا طويلا وجهدا كبيرا اذ سارع سكان البوادي المجاورة للدفاع عن أرضهم وعرضهم، فحاصروا الحي الأروبي وركزوا هجوماتهم على القنصلية الفرنسية واتخذوا من سطوح المنازل وصوامع المساجد والنوافذ مئاريب ومخابئ، وقد استمر القتال على أشده من 5 الى 7 غشت الأمر الذي دفع السلطات

الاستعمارية الى الاستنجاد بالأسطول الفرنسي الذي قنبل أطراف المدينة ومراكز تجمع المدينة وبذلك تمكن الفرنسيون من اختلال المدينة، وإذا كانت أصداء المقاومة بالدار البيضاء قد شهد بها وباركها كل المغاربة، ونوهت بها الصحافة العربية، فأرى ان الاستشهاد باعتراف الجنرال درود وهو أحد الاركان الاستعمارية بالمنطقة خير معبر عن قوة وفعالية هذه المقاومة، يقول درود : «إني شاهدتهم عن قرب قد ظهر لي انهم يستخفون بالموت كل الاستخفاف، ويستقبلون النيران بكل جرأة وإقدام..» وكتب مراسل جريدة لومتان : «وإنه لمن الخطأ أن نستعين بقوة المغاربة ونزعم أنهم لا يقوون على ملاقاتنا، وأن معركة واحدة تفصل بيننا وبينهم، إذ القوم ذوو بأس كبير وعناد شديد وشجاعة فائقة...».

ولم تكف فرنسا باحتلال البيضاء بل اتخذتها نقطة للتوسع في باقي مناطق الشاوية إذ نشرت قوات الاحتلال الفرنسي في ضواحي المدينة بقيادة الجنرال درود الذي اصطدم أيضا بمقاومة عنيفة امتدت من غشت الى دجنبر 1907، ولم يتمكن من خلال هذه المدة من التوغل في بلاد الشاوية، لأن كل محاولة لذلك كانت تسفر عن معركة وخيمة العواقب كمعركة 10. غشت و 18 و 28 غشت (معركة دار بوعزة ومعركة سيدي مومن) وقد بينت هذه المعارك من جهة شجاعة المجاهدين ووطنيتهم، رغم امكانياتهم المتواضعة، ومن جهة أخرى فضحت ادعاءات التدخل السلمي الاستعماري والتعاون مع المخزن، وقد تأكد ذلك في مبايعة المغاربة وفي مقدمتهم أهل الشاوية للمولى عبد الحفيظ في 21 غشت 1907 واعلانه الجهاد، الأمر الذي دفع الحكومة الفرنسية الى تغيير خطتها فدخلت بذلك مرحلة جديدة في احتلال الشاوية مع مطلع 1908، إذ عينت الجنرال داماد عوض الجنرال درود الذي اتهم بالعجز كما عززت قواتها العسكرية بالمنطقة، وقد شرع الجنرال داماد في تنفيذ خطة جديدة اعتمدت على شن هجومات قوية واعتماد أسلوب الارض المحروقة. ورغم ذلك صمدت القبائل الشاوية وعرقلت التوسع الفرنسي بالمنطقة رغم امكانياتها المتواضعة والمعطيات الطبوغرافية الغير الملائمة ويظهر ذلك في المعارك المتعددة والخسائر الكبيرة التي تكبدتها قوات الجنرال داماد، وأهم هذه المعارك معارك سطات 1908 والتي اشتهر من زعمائها الاحمر بن منصور، وعمر الغنيمي، ومحمد بن الطيب البوعزاوي والمصوب الزمراني.

فقد أصبحت سطات لكونها المركز الحضري الرئيسي بالشاوية، ولقربها من مشرع الشعير الذي خيم به المولى عبد الحفيظ الذي دعا الى الجهاد، ولثقل المجاهدين المتواجدين بها، لكل ذلك أصبح هدف الجنرال داماد الذي حرك قواته من برشيد صبيحة 15 يناير 1908 ووصل مشارف سطات وحاول مفاجأة

السلطانيين، ووزع قواته الى قسمين : قسم هاجم المدينة وقسم احتياطي دخل بعد ذلك لكن المقاومين قاتلوا القوات الفرنسية على التلال المجاورة ولم يلتحموا بها إلا بعد أن دخل القسم الاحتياطي، وبعد أن تعززت قواتهم بوصول المجاهدين من قبيلة المذاكرة، وظلت المعركة مشغلة طيلة 15 يناير انتهت بانسحاب الغزاة ورجوعهم الى برشيد، وقد خلدت الكتب التاريخية، والذاكرة الشعبية المحلية هذه الملحمة، ومن ذلك وصف أحد المغاربة لهذه المعركة قائلاً : «فيا له من يوم نحرت فيه أعناق وأنبيت عن جثتها رؤوس الفجرة، فما ضحى المسلمون بأحسن من تلك التضحية...».

ولم يتمكن الفرنسيون من احتلال سطات الا بعد معركة ثانية في 2 فبراير 1908، وثالثة في 6 أبريل 1908، ومن نتائج هذه المعارك استشهاد بعض المجاهدين مثل القرشي بن الوغام من أولاد سيدي بنداود، أما الفرنسيون ففقدوا عدد كبيراً من الجنود من بينهم عدة ضباط وبالإضافة الى هذه المعارك خاضت قبائل الشاوية معارك أخرى كمعركة سيدي عبد الكريم ومعركة فخفاخة ومعركة بزايح، واثرت هذه المعارك بدأت تساور الحكومة الفرنسية شكوكاً في كفاءة القائد داماد، لذلك عينت الجنرال ليوطي الخبير في الشؤون الاستعمارية في مهمة استطلاعية بالمنطقة، فكتب تقريراً يوضح طريقة تثبيت الاحتلال بالشاوية، ويدافع فيه عن ابقاء الجنرال داماد خصوصاً بعد أن ارتكب هذا الأخير مذابح وحشية مثل مذبح سيدي الغنيمي في 15 مارس 1908 والذي ذهب ضحيتها 1.500 مواطن، وكان الجنرال داماد يهدف من رواء هذه المذابح الى تجاوز الفشل الذي منيت به قواته في المعارك السابقة وبالتالي انهاء مقاومة الشاوية. والواقع أن مجاهدة الشاوية وغيرهم ممن جاءوا من قبائل أخرى قد انهكتهم المعارك. وأعاقتهم طبوغرافية المنطقة وعزاً عليهم الحصول على السلاح، لكل ذلك تمكنت القوات الفرنسية من احتلال الشاوية وقد كلفها ذلك وقتاً طويلاً وامكانيات ضخمة وخسائر فادحة بسبب عنف استمرارية المقاومة المسلحة التي واجهتها.

المراجع :

- أعمال ندوة الدار البيضاء - منشورات كلية الادب - 1982
- أحمد زيادي : انتفاضة الشاوية سنة 1907.
- مجلة كلية الأدب والعلوم الانسانية 1985 - الرباط.
- السيد عياش - المغرب والاستعمار
- الملحق الثقافي - الاتحاد الاشتراكي
- La grande siba de la Chaouia : Edmont Berke -

الحياة العلمية من خلال رجالات الشاوية غازي مختار

ورد على لسان عدد من الشخصيات المتواجدة بالمدينة والناحية أن سطات، ظلت مركز اشعاع ثقافي على مدى الحقب المتتابعة.

يدرس بها العلم، ويتخرج منها العلماء، ويتلقى بها الأطفال والشبان أنواع المعرفة التي كانت رائجة آنذاك بالمنطقة من : فقه وتفسير ونحو وبلاغة وصرف بالإضافة الى حفظ القرآن بقراءاته المختلفة.

وتقول نفس المصادر : إن سطات بلغت منزلة رائدة في هذا الميدان، فقصدها طلاب العلم من كل الفئات والشرائح الاجتماعية. ويشهد لها بذلك القاضي والداني، المواطن والأجنبي.

فهذا السيد «كستاف لوبون» يقول في حديثه عن التعليم والعلم بالمدينة : «إن إطار المنظمات الجامعية العتيقة، وإقبال الطلاب على الدروس، وقائع تؤكد أن مستقبل الحياة الثقافية بسطات، شيء مضمون، تطمئن إليه النفس».

وفعلا فقد كانت هناك مؤسسات تعليمية من نوع المدارس الخاصة التي تعرف بأسماء أصحابها. وتستمد شهرتها التلقائية من سعة علمهم ومداركهم.

كانت المدينة تستقطب رواد وطلبة العلم القادمين من نواح مختلفة لتلقي المعرفة.

أما الطلبة فكانوا يعيشون على شطف من العيش. ويحدث بين الفينة والأخرى أن يتوصلوا بهبات وتبرعات من المحسنين. وتدخل في باب مساعدة طلاب العلم أو «المسافرين» على بلوغ مراميهم. ونفس الدور لعبته بعض الزوايا، إلا أنها كانت قليلة، تلك التي اهتمت بالعلم والتدريس.

وقد نبغ العديد من العلماء بالمدينة والناحية. وسبقتهم شهرتهم لتصل الى أرجاء البلاد. وعقدوا حلقات مضيئة، أشاعوا فيها نور العلم والجهاد كما روت ذلك بعض المراجع التاريخية الشهيرة، لقد ظلت الشاوية تتحرك مدا وجزرا في خضم جو متقلب. فهي تارة تغلي وتموج، فيتوقف النشاط الثقافي، وتتجمد الحيوية العلمية، وتارة تهدأ الزوبعة، وتسكن تيارات الفتنة، فيعم الرخاء أرجاء البلاد، وتزدهر الحركة الاقتصادية والفكرية، فيكرم الجميع من ينابيع هذه الاخيرة رخاء ودفنا ومنتعة قد تطول وقد تقصر.

ومع ذلك، فلم تخل أبدا الساحة الساخنة من الاشعاع الفكري الذي أضاءت أنواره أرجاء المنطقة خصوصا. وجهات أخرى متفرقة في المغرب عموما.

ومن أشهر الزجالات العلمية التي حفلت هذه الشعلة المقدسة واستنار بها الاتباع والمريدين وطلاب المعرفة، والشيوخ الآتية أسماؤهم :

الشيخ أبو الحسن علي بن عثمان الشاوي

لقد عرف هذا الشيخ الفاضل بسعة أفقه وبغزارة علمه وبزهده وجهاده في سبيل الله جاء في الاستقصا، الجزء الرابع. الصفحة 162 «ذكر صاحب الدولة في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الشاوي رحمه الله. أنه استشهد في الواقعة التي دارت بين النصاري والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي، على مقربة من أصيلا. قال : حدثني غير واحد ممن يوثق به، ممن حضر الواقعة، وبعضهم يصدق بعضا. قالوا : لما انهزم الناس، استقبل الشيخ أبو الحسن النصاري، وسيفه في يده وهو يتلو بردة البصري. وكان ذلك آخر العهد به».

ولما رجع الناس في الغد ليحملوا قتلاهم، لم يوقف له على عين ولا أثر. وإنما وجد لباسه عند النصاري وفيه أثر طعنة في صدره.

وذلك جمع الشيخ الجليل بين العلم والتدريس والشهادة في سبيل الله.

* * *

ويوجد شيخ آخر اسمه «أبو الحسن» ورد في المرأة : أن الشيخ المذكور عالم مطلع غزير المعرفة ومات أيضا شهيدا في حياة شيخه الغزواني.

الشيخ أبو النجاء الشاوي

يقول صاحب الاستقصا في الجزء الرابع. الصفحة 116، «هو الشيخ عبد الله الروداني الشاوي».

وجاء في مرآة المحاسن : إن أبا النجاء الشاوي كان في البداية طالبا بالمدرسة البوعنانية بفاس. ثم أصبح عالما شهيرا بمدينة فاس (وهي مهمة غير ميسرة للجميع) وعنه أخذ عدد من الشيوخ.

الشيخ أبو الشتاء الشاوي

جاء في الاستقصا، الجزء الخامس، الصفحة 192 «أن الشيخ أبا الشتاء عالم جليل مشهور ورائد اسمه هو محمد بن موسى. كني فيما بعد بأبي الشتاء، وذلك لأن الناس قحطوا فلجأوا إليه ثم إنهم سقوا بعد ذلك الحين.

وهو من أصحاب الشيخ الغزواني، ويقال إنه ما لقي هذا الشيخ الفاضل إلا مرة واحدة، بقبيلتهما الشاوية، حيث عينه ومكنه، فكان في أمره ما كان، وقد توفي هذا الشيخ الصالح سنة 997.

الشيخ محمد بن الشاوي السعيدي

هو فقيه علامة، اشتهر بالشاوي، ويعد قطبا في ميدان الفقه والنوازل. أتخذ الزاوية المنسوبة إلى أولاد الناودي بأولاد سعيد مركز النشر والعلم والعرفان في أوساط الشاوية.

* * *

ومن العلماء من أقام مدرسة علمية، استقطب إلى صفوفها العديد من الطلاب الذين قصدوها من جميع أرجاء الشاوية، ومن المناطق المجاورة كدكالة والرحامنة وعبدة. مثل :

مدرسة سيدي المعطي

تعد هذه المدرسة من أبرز المؤسسات التعليمية بالشاوية، نالت تقدير الجميع.

وقد اعترفت بها الجامعات المتواجدة بالمغرب إذ ذاك. وأقبل عليها رواد العلم من مختلف الأوساط الراغبة في التعليم.

والأستاذ سيدي المعطي من أصل قرقوري. وهي إحدى قبائل بني مسكين التابعة لسلطات (وينسبهم البعض إلى الإدارة).

درس في مدينة فاس، ونبغ في علوم الدين والفكر الإسلامي والفقه، وقد نالت فتاويه الخطوة الكبرى لدى الجميع.

جمع بين التدريس ومنصب قاض شرعي.

وقد أقبل الطلبة بشغف متزايد على دروسه. حتى زاد عددهم على الثلاثين، كانوا يتابعون دروس الأستاذ يوميا بدون انقطاع.

مدرسة سيدي أحمد بن مولاي التهامي

استمرت مدرسة الشيخ التهامي في أداء رسالتها التعليمية إلى بداية عهد الحماية. ويرجع أصل هذا الفقيه إلى أولاد غنام، وهي فرقة من جباله، استقرت بضواحي سطات منذ عهد غير . . . ف.

اشتغل هذا الشيخ الجليل بالقضاء، إضافة إلى عمله الرسمي الذي هو التدريس، وكان لشخصيته الأثر المحمود في الأوساط الثقافية وغيرها.

اتخذ لنفسه مقرا بالكرار حيث سبق لوالده أن أسس زاوية هناك. وفضلت العائلات إرسال أبنائها إلى مدرسته ليتلقوا علم الفقه الذي اشتهرت به مدرسته.

مدرسة الأستاذ السيد الغازي

حظيت مدرسة الأستاذ الغازي بمنتهى العناية من لدن الجهات الرسمية وغيرها. وكانت في مستوى طموح مؤسسها ورغبات المنتسبين إليها.

ف عائلة الغازي انجبت علماء ظلت دروسهم تلقى باستمرار. وقد تلقى بعض أفراد العائلة المالكة دروسهم على أيدي هذه الأسرة.

ويقول عنه أستاذنا الجليل السيد العربي العزوزي في مخطوطه عن سطات وناحياتها :

«كان هذا الرجل العظيم من الأساتذة المقربين. جليل القدر وكان في ابتداء أمره، ملازما للتعليم. سالكا سبيل المسلمين والمهتدين.

وكان ممن يقرأ عليه، أبو الربيع، السلطان مولاي سليمان العلوي، يصفه أهل زمانه بخصال عالية في الأحكام والعدل والديانة المتينة، مات رحمه الله وخلف ذرية من مشاهير بيوتات القبيلة، كانت لهم مصاهرة مع

السلطان مولاي الحسن الأول بوالدة السلطان مولاي حفيظ» انتهى كلام السيد العزوزي.

وتقول رواية فرنسية في هذا الباب «كان الغازي محط احترام وتقدير من طرف السلطان المولى سليمان الذي عهد اليه بتربية ابنه المولى «أحمد» الذي توفي بسطات ودفن بالضريح الذي يحمل اسم «مقبرة مولاي أحمد» وهي مقبرة أولاد الغازي».

وجاء في الاستقصا، ج 2 ص 100 ما يلي : «ولما كانت سنة 1210، قدم على السلطان المولى سليمان بمكناسة، جماعة من أعيان الرحامنة مبايعيين، وسألوه أن يشرفهم بالتوجه معهم إلى بلادهم، فوعدهم بذلك».

إلى أن يقول : «وتقدم أهل الشاوية إلى السلطان معتذرين، فعفا عنهم وولى عليهم «الأستاذ» الغازي بن المدني والملاحظ أن هذه القولة هي أول مرة يستعمل فيها المؤلف لفظ «الأستاذ» وهو يتحدث عن قائد إداري، فصلحت أحوالهم على يده. وهكذا يؤكد الدور الهام الذي قام به الأستاذ الغازي.

مدرسة الشيخ البوعزاوي

مؤسس هذه المدرسة هو الشيخ محمد بن الطيب البوعزاوي.

جاء في مخطوط شيخنا السيد العزوزي : «نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير». «كان الشيخ البوعزاوي مربيا، ذا مفاخر عالية وكرامات عديدة.

كان في ابتداء الأمر مشغولا بتدريس العلوم بالزاوية المزابية، ثم مال إلى طريقة التصوف فتبحر في علومها.

له عدة تأليف منها : التائية والهمزية، وهما بيد تلاميذه.

وله قصائد منها : رسالة المريب، والنحو المطلوب في شمائل النبي المحبوب. ومن أراد استيفاء الكلام عليه وعلى نسبه، فعليه بمطالعة الكتاب المسمى «بالكوكب الضاوي». انتهى كلام السيد العزوزي.

مدرسة الشيخ أبي شعيب الشاوي

يقول هذا الشيخ الجليل، أستاذنا المحترم، منشط الحركة العلمية في الاربعينات والخمسينات. في أخرج الأوقات وأدقها في عهد الحماية : «ابنه الفاضل السيد مولاي أحمد الجهلولي (أديب)».

هو الشيخ شعيب الشاوي بن محمد الرامي بن محمد. ولد سنة 1286 هجرية بقبيلة البهالة بضواحي سطات. تلقى دروسه الأولى على أستاذه الذي هو أخوه المسمى مولاي الطاهر.

وعندما اشتد عوده، وازدادت رغبته في كرج المزيد من العلم، توجه إلى فاس وبها تتلمذ على الشيخ مولاي الكبير الكتاني.

وعاد إلى سطات مزودا بالمعرفة الكافية التي فتحت له باب التدريس بمدينة سطات وضواحيها، وقبل أن يلتحق بمراكش، ويصبح أحد علمائها الأفاضل حتى أطلق عليه : الشيخ شعيب الشاوي.

ومن تأليفه الكواكب النيرات في شرح نظم الغبريطي للورقات.

وظل يجاهد في ميدان العلم إلى أن توفي 23 صفر 1349، بعد حياة دامت 63 سنة، وقبره موجود في سيدي محمد البهلول.

واحتل أهل العلم وأهل المعرفة، مكانة مرموقة في وسط الاسر بجميع فئاتها. وجميع أهل سطات بين الفلاحة والتجارة والعلم حيث تكونت نخبة من المثقفين برعوا في علوم الفقه، والسيرة والتفسير.

وامتدت سطات والناحية بما كان متعارفاً عليه في جميع الجامعات المغربية من إقامة حفلات سنوية للطلبة احتفاء بالعلم وأهل العلم، وجرت العادة أن يخرج الطلبة في موكب يخيم عليه الوقار فيجوبون مختلف شوارع المدينة.

جاء عن شيخنا السيد العزوزي في هذا الميدان قوله : «وفيما يخص مدينة سطات، فكانت فيها العادة المعروفة بسلطان الطلبة، وهي عبارة عن احتفال فقهاء المدينة وطلابها، يكرمونهم مدة تزيد على الشهر الذي تكتسي فيه المدينة طابعا خاصا، لاسيما عندما يمر موكب الطلبة والمقدم زاكب على جواده، والموسيقى تعزف بشوارع الحي الذي يستقبلهم. وتبقى هذه الحالة إلى أن ينتهي السهر. ويختتم الطلبة ذلك بحفل بهيج.

وفي عهد الحماية عرفت ساحات المساجد والزوايا رومانسية ساخنة. كانت تستمر في الغالب طيلة أيام السنة. ساهم فيها شيوخنا الأجلاء المحترمين السادة :

1. الفقيه السيد بوعشرين الذي كان يشغل منصب قاض شرعي بأولاد سعيد، في الأربعينات. له عدة مؤلفات منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط. وكانت له مواقف خاصة في بعض القضايا الدينية : ومن مؤلفاته : الحظ على العبادة.

2. الفقيه السيد عبد المجيد برقاش. وهو تاجر بالمدينة في السكر والشاي.

واسع الاطلاع، وقد تميز عصر هذين الشيخين بصراع علمي بناء استفاد منه المواظبون على دروسهما.

والجدير بالملاحظة أنه كان لكل واحد منهما اتباعه وأنصاره. وكلما ضمهما جمع إلا ودار النقاش حول مضمون دورس الفقيهين. وتشد المجادلة بين الجانبين وتحمل نتائجها الي شيوخهم الذين يصدرن أحيانا فتاوى في الموضوع، يتحمس البعض لها، ويعارضها البعض الآخر الي حين انجلاء الحقيقة التي يتقبلها الجميع في النهاية بصدر رحب وقلب مفتوح.

ومن بين علماء تلك الفترة الفقيه السباعي والفقيه البهلوي والسيد البوزيري وغيرهم.

وخلفهم شيخنا الفاضل السيد مولاي أحمد البهلوي «أديب» والذي يرجع إليه الفضل بتوفيق من الله الي حمل مشعل الثقافة العربية، أثناء فترة من أدق فترات التاريخ المغربي. لقد ربي وعلم وأسس مدرسة تخرج منها جيل بكامله يحتفظ شيخه المبخل بذكريات مجيدة، مقترنة بالتقدير والاحترام.

وهكذا، نجد أنه سواء كان التعليم، منيعه من المساجد والزوايا أو المدارس الرسمية أو الحرة - فإن الاشعاع الفكري الذي ميز المدينة خلال فترات ما قبل الاستقلال بصفة خاصة - ترك بصماته واضحة على ساحة الفكر والابداع وتكوين الشخصية الثقافية السطانية.

وسيكشف المستقبل مرة أخرى - إن شاء الله - عن الامكانات الهائلة التي تتوفر عليها سطات في المجالات العلمية لتصبح مركز اشعاع فكري يتردد صداه في مختلف الأوساط.

الفهرس

الصفحة

- 3 - تقديم
- الندوة الأولى: تاريخ الشاوية
- 7 - منوعات من إقليم الشاوية
محمد المنوني
- 11 - التعريف ببعض رجالات الشاوية
محمد مفتاح
- 19 - مؤلف نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية للقاضي
انحريبي العزوزي.
علال الخديمي
- الندوة الثانية : فنون الشاوية
- 29 - مؤثرات الجوار في أداة الايقاع في الموروث الشعبي
محمد بوحמיד
- 35 - انشاوية وفن الملحون
عبد الرحمان الملحوني
- الندوة الثالثة : الشاوية ؛ تاريخ، مقاومة ونهضة
- 45 - انشاوية في العصر الوسيط
عبد العزيز الغزال
- 53 - مقاومة الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي
محمد بوجميل
- 59 - انحياة العلمية من خلال رجالات الشاوية
غازي مختار

إعداد :
محمد الزين